الحجاب
رؤية عصرية

مدونة ابو عبدو
ABU ABDO ALBAGL

إقبال بركة

دار كيوان

7680
120

إقبال بركة

الحجاب

«رؤية عصرية»

الحجاب
رؤية عصرية

الكتاب: الحجاب «رؤية عصرية»
تأليف: إقبال بركة
الناشر: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع
تصميم الغلاف: وائل كيوان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
موافقة وزارة الإعلام رقم ٧٤٢٨٠
الطبعة الأولى ٢٠٠٣

التنفيذ الطباعي:

دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ الحلبوني ـ الجادة الرئيسية
هاتف: ٢٢١٧٢٤٠ ـ فاكس: ٢٢١٧٢٤٠
E- Mail: Kiwanpub@scs-net.org

تقديم

إقبال بركة إحدى رائدات التنوير في مصر

إقبال بركة أديبة وروائية وقاصة وصحفية وإذاعية، ورائدة من رائدات التنوير في مصر.

ولدت في القاهرة عام ١٩٤٢، وتلقت دراستها الابتدائية في مدرسة فاروق الأولى بالسكاكيني، والإعدادية في مدرسة الترعة البولاقية، والثانوية في مدرسة شبرا للبنات، والجامعية في جامعة الإسكندرية، حيث نالت شهادة الليسانس في اللغة الإنكليزية ١٩٦٢ بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف الأولى، ودبلوم الدراسات العليا في الدراما عام ١٩٦٤، ثم نالت الليسانس في اللغة العربية وآدابها من جامعة القاهرة عام ١٩٧٩ بتقدير جيد جداً.

عملت بعد تخرجها في شركة النصر للأجهزة الكهربائية والإلكترونية، وفي تدريس اللغة الإنكليزية بمدرسة «كيفان» الثانوية للبنات في الكويت ١٩٧٢، وكبيرة للمذيعات في البرامج الموجهة باللغة الإنكليزية بإذاعة القاهرة ١٩٧٩، وبرنامج «فن وفكر» وهو حوارات مع المثقفين والضيوف الأجانب، إضافة إلى قراءة النشرات الإخبارية، حتى انتقلت إلى مؤسسة

«روز اليوسف» كمحررة. أجرت في مجلة «صباح الخير» عدة حوارات جريئة، جادلت فيها مفكرين إسلاميين حول وضع المرأة في الإسلام والقضايا المعاصرة، أصدرتها مؤسسة رزو اليوسف في كتاب، وقد اختارت جامعة «امستردام» الورقة التي كتبتها حول عودة الحجاب إلى نساء مصر كواحدة من أفضل خمسة عشر بحثاً قدم في مؤتمر المرأة الدولي الذي عقدته الأمم المتحدة في «نيروبي» عام ١٩٨٥.

اختار قسم الدراسات بجامعة «بكين» روايتها «كلما عاد الربيع» لترجمتها إلى اللغة الصينية مع أربع روايات أخرى لكاتبات من الولايات المتحدة الأمريكية وإنكلترا وفرنسا واليابان تمثل الأدب النسائي، كما ألقت العديد من المحاضرات في جامعات الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا والصين، وحررت باب «يوميات امرأة عاملة» في مجلة «صباح الخير» وباب «فضفضة» في مجلة «روز اليوسف»، ناقشت فيهما الكثير من القضايا السياسية بجرأة وسخرية حادة.

كتبت لإذاعة الشرق الأوسط في القاهرة مسلسلين إذاعيين هما «أحلام أحلام» و«شجرة اسمها الود».

عينت عام ١٩٩٣ رئيسة تحرير مجلة «حواء» التي تكتب فيها افتتاحية أسبوعية بعنوان «الحياة امرأة» كما تكتب مقالاً أسبوعياً بعنوان «حتى لا ننسى» في جريدة «الأهرام».

آثارها الأدبية:

رفدت الأديبة إقبال بركة المكتبة العربية بعدد وافر من كتب الرواية والقصة القصيرة، وأدب الرحلات والحوارات الدينية، والخواطر والنقد الأدبي والتاريخ الاجتماعي منها:

١ ـ ولنظل أصدقاء إلى الأبد «رواية» ١٩٧١.

٢ ـ الفجر الأول «رواية» ١٩٧٥.

٣ ـ الصيد في بحر الأوهام «رواية» ١٩٧٩.

٤ ـ ليلى والمجهول «رواية» ١٩٨٠.

٥ ـ تمساح البحيرة «رواية» ١٩٨٣.

٦ ـ كلما عاد الربيع «رواية» ١٩٨٥.

٧ ـ قضايا إسلامية «دراسة» ١٩٨٧.

٨ ـ رحلة إلى تركيا «انطباعات» ١٩٨٣.

٩ ـ حادثة اغتصاب «قصص قصيرة» ١٩٨٣.

١٠ ـ يوميات امرأة عاملة «مقالات» ١٩٨٣.

١١ ـ هي في عيونهم «مقالات» ١٩٩٦.

١٢ ـ المرأة المسلمة في صراع الطريوش والقبعة ـ الجزء الأول ـ باحثة البادية ٢٠٠١.

١٣ ـ الحجاب ـ رؤية عصرية ـ «دراسة» ٢٠٠٢.

كتبت إقبال بركة الرواية والقصة القصيرة والمقال الأدبي والمقال الصحفي، ومارست العمل الإذاعي، فنجحت في هذه الألوان كلها.

لمحات من شخصيتها:

تعلمت في المدرسة رياضة التنس والرماية وقيادة السيارات، والعزف على الأكورديون والتمثيل باللغة الإنكليزية، وكتابة المقالات، والتحدث باللغة الإنكليزية. واختارها أستاذ اللغة العربية رئيسة لتحرير الجلة الحولية التي أصدرتها المدرسة ١٩٥٨، وفي الثانوية العامة كانت الأولى على المدرسة في الفرع الأدبي.. كما تعلمت النظام واحترام المدرسين وكبار السن وحب الاطلاع، وكل ما هو حسن وأخلاقي.

وفي الجامعة مارست الرياضة، وكتبت في صحيفة الحائط، وشاركت في المعارض الفنية، وقامت بأداء دور البطولة في مسرحيتي «الموت يأخذ إجازة» و«ست الحسن» وبطولة اسكتشات «فرقة السمر».

تعكف منذ سنوات على قراءة القرآن الكريم ودراسته بعمق لفهمه بعقلية امرأة مثقفة حرة. تعيش القرن الحادي والعشرين.

الحجاب «رؤية عصرية»:

تقول الأديبة إقبال بركة في مقدمة كتابها «الحجاب رؤية عصرية»: «منذ منتصف السبعينات وظاهرة انتشار الحجاب بين النساء العربيات تثير فضول الغرباء، والكثير من الهواجس والقلق لدى المثقفين المسلمين، وتتابع بكثير من الريبة والتوجس من الإعلام الغربي».

وتضيف: «إن الجدل بين المسلمين المعاصرين لا يكاد يتوقف حول قضية الحجاب، وكلما انتهى بين طرفين عاد ليثور بين أطراف أخرى.. وبعيداً عن الجدل المستمر، بين الطرفين المعارض والمشجع، ما زالت أعداد المحجبات في ازدياد، وما زال الإسلاميون يدفعون بشدة في هذا الاتجاه».

تعتقد السيدة إقبال بركة أن هذه الظاهرة انتشرت، نتيجة لتفشي الفكر السلفي بين الفقهاء المعاصرين، وتقاعسهم عن تقديم تفاسير عصرية تتفق مع التطورات السريعة في المجتمع البشري.. كل هذا والمرأة صاحبة الأمر صامتة لا تشارك، وإن أفصحت برأي فعلى استحياء شديد، كأنها لا تتدخل فيما لا يعنيها، رغم أن الأمر يخصها وحدها قبل غيرها. وتتساءل بدهشة: هل صمت المرأة دليل على اقتناعها، أو هو صمت المستسلم المقهور؟! إنه ليس هذا وذاك، بل هو بسبب عدم توفر الوعي لديها، والاعتقاد بأن «الحجاب فريضة على كل مسلمة»، أو هي مرغمة على ارتدائه دون اقتناع كافٍ..

وتعترف أنه ثار في منتصف السبعينات جدل حول وضعية المرأة، وتكررت في الصحف العربية كتابات تهاجم النساء العاملات، وتطالب بعودة المرأة إلى البيت، والاكتفاء بتأدية دور الزوجة والأم.. وشاع فكر يهاجم سفور المرأة واختلاطها بالرجال، واشتراكها في الحياة العامة، وينتقد مطالبتها بالمزيد من الحقوق، بدعوى أنه تقليد أعمى للغرب، وأن له عواقبه الوخيمة على المجتمع الإسلامي والإنساني كله.

ولكي تجد حلولاً لهذه المشكلة المصيرية الحساسة، راحت السيدة إقبال بركة تبحث عن موقف الإسلام من المرأة عبر التاريخ، فعكفت طوال أربع سنوات على قراءة ودراسة القرآن الكريم والسنة النبوية، وكتب الأدب والتاريخ الإسلامي والفلسفة الإسلامية، ومطالعة كل ما كتب عن الحجاب.. حتى استطاعت أن تخرج بهذا الكتاب القيم المقنع الذي تناولت في فصوله الثمانية الحجاب في التاريخ، والحجاب في القرآن الكريم، والحجاب في الحديث النبوي الشريف، والرق قبل الإسلام وبعده، والحجاب والهوية الإسلامية..

وختمت الكتاب بإيراد آراء مؤيدي الحجاب، وآراء معارضيه، وناقشت مؤيديه مناقشة علمية منطقية، رصينة تقوم على الفهم والوعي والإدراك واستخدام العقل.

عيسى فتوح

المقدمة

منذ منتصف السبعينيات وظاهرة انتشار الحجاب بين النساء العربيات تثير فضول الغرباء، والكثير من الهواجس والقلق لدى المثقفين المسلمين، وتتابع بكثير من الريبة والتوجس من الإعلام الغربي..

والجدل بين المسلمين المعاصرين لا يكاد يتوقف حول قضية الحجاب، وكلما انتهى بين طرفين عاد ليثور بين أطراف أخرى. وقد بلغ من حماس البعض وإصرارهم على الدفاع عن الحجاب وإعادته إلى رأس المرأة المعاصرة إلى حد أنه أصبح كما لو كان يرمز وحده إلى الهوية الإسلامية ويمثل جوهر الوجود الإسلامي.

وبعيداً عن ذلك الجدل المستمر بين الطرفين، المعارض والمشجع، ما زالت أعداد المحجبات في ازدياد، وما زال الإسلاميون يدفعون بشدة في هذا الاتجاه، وعلى الأخص بعض الدعاة العصريين الذين اكتسبوا شهرة واسعة بين أوساط الشباب، وطلاب الجامعات الخاصة الذين ينتمون إلى العائلات الثرية، والذين تنتظرهم الفرص للمشاركة في تغيير هذا الوطن وبنائه. وقد تحول الخمار و«التيربون»، وأحياناً البرقع إلى مودات تنتشر بين المراهقات والبالغات في مصر، دون أن تكون لها أية أبعاد إيمانية..

وتغرق المرأة المسلمة المعاصرة في بحر من التساؤلات التي لا تجد لها إجابات شافية:

ألبس الحجاب أم لا ألبسه؟!

أكشف عن وجهي وكفيّ أم أخفيهما؟! أكتفي بإيشارب لإخفاء شعري أم لا بد من أن أخفي النحر وفتحة الصدر أيضاً؟! هل النقاب حلال أم حرام؟! وإذا لم ألبس الحجاب فهل أكون عاصية آثمة كما تردد في كتابات بعض الداعين إليه، أم أن الله غفور رحيم؟! وإذا لبسته هل أبدو متخلفة عن العصر، واقعة في أسر الفكر «الحريمي» متخلية عن كل ما يقدمه لي عالم اليوم من حقوق وحريات..؟!

وما يزيد في حيرتها الخلاف الشديد بين المفكرين حول ظاهرة انتشار الحجاب. ففريق يراها انتصاراً للفكر الإسلامي الصحيح وعلامة على الصحوة الدينية لدى المسلمين وعودة بالنساء المسلمات إلى الطريق المستقيم.. الخ. بينما فريق آخر يرى أن هذه الظاهرة انتشرت نتيجة لتفشي الفكر السلفي بين الفقهاء المعاصرين، وتقاعسهم عن تقديم تفاسير عصرية تتفق مع التطورات السريعة في المجتمع البشري، والنتيجة في رأيهم عودة بالمسلمين قروناً عديدة إلى الجاهلية، وإساءة إلى الإسلام الذي ساوى بين كل البشر ونزلت رسالته الحنيفة لتحرر الإنسان، ذكراً وأنثى، وتنقذهما من عبودية الماضي.. أما أعداء الإسلام فيدللون بها على تفشي التمييز العنصري في المجتمعات الإسلامية، وعلى ازدراء المسلمين للمرأة، وإمعانهم في إذلالها وحبسها داخل إطار متخلف..

والملاحظ أن أغلب المتجادلين حول هذه القضية من الرجال، بينما صاحبة الأمر صامتة لا تشارك، وإن أفصحت برأي، فعلى استحياء شديد، كأنها تتدخل فيما لا يعنيها، رغم أن الأمر في حقيقته يخص ماهيتها ويرسم ملامحها ويحدد وجودها ويؤثر على حياتها من الميلاد إلى الممات..

فهل صمت المرأة دليل على اقتناعها أم هو صمت المستسلم المقهور؟!

إنه ليس هذا ولا ذاك.. بل هو بسبب عدم توفر المعلومات لديها.. فأغلب اللاتي يرتدين الحجاب يرددن أن الحجاب فريضة على كل مسلمة، دون أن يعرفن المعنى الحقيقي لكلمة فريضة، ولا ما هي شروط الإيمان الصحيح. وقد لا تتذكر الأغلبية العظمى من المحجبات الآيات القرآنية الخاصة به، أو يحفظنها عن ظهر قلب، دون وعي بتفسيرها أو بأسباب نزولها. وإذا ما حاولت إحداهن البحث عن جذورها وجدت كتب التفاسير تمتلئ بمئات الصفحات التي تكشف خلاف المفسرين حول ماهية الحجاب وشروطه، ودلالات الألفاظ الخاصة به في القرآن الكريم مثل الجلباب والخمار والثوب والزينة..؟!

والنتيجة.. أن اللاتي يرتدين الحجاب إما يأخذنه كقضية مسلمة، أو أرغمن على ارتدائه دون اقتناع كاف.

وفي الوقت نفسه الكثيرات ممن يرفضن ارتداء الحجاب يرددن عبارات ومصطلحات وأفكاراً مستعارة من الفكر الغربي الحديث ولا علاقة لها بالموضوع.. الذي هو أمر إسلامي لا يخص سوى المسلمين وحدهم..

وأغلب المثقفات العربيات المعاصرات يتجاهلن هذا الموضوع، ويتجنبن إبداء الرأي فيه، وإذا أثير أمامهن وقفن موقف متردداً ليس معه ولا ضده.. وكثيراً ما أفصحن عن رغبتهن في عدم الخوض فيه لحساسيته أو لخطورته على حياة من قد يطرح فيه رأياً يخالف الفكر الشائع بين العامة.. والسبب الحقيقي وراء ذلك هو عدم إلمامهن بتفاصيل موضوع لباس المرأة المسلمة، ولا تتوفر معلومات عنه لديهن سوى تلك التي تتكرر على ألسنة الدعاة وكلها مأخوذة عن المفسرين القدامى..

وأعترف أني كنت واحدة من هؤلاء.. وكان الموضوع بقدر ما يثيرني ويقلقني، يسبب لي جرحاً وارتباكاً شديدين، خاصة إذا ما أثير خارج مصر، في وسط المثقفات الغربيات.. كن يسألنني في لهفة لكي يحصلن على إجابات شافية من امرأة عربية متعلمة: ما هي حقيقة الحجاب؟ لماذا ينتشر بسرعة كبيرة بين النساء المسلمات حتى الحاصلات على أعلى الدرجات العلمية..؟ هل أنت مقتنعة به؟! ولماذا لا ترتدينه؟!..

والذنب ليس ذنب المرأة العربية المعاصرة ولا ذنب المسلم المعاصر.. فالواقع أن مناهج التعليم أهملت الدين كمادة علمية، فلم يكن مادة نجاح أو رسوب.. وكانت حصة الدين في المدرسة مملة إلى أبعد مدى، كثيراً ما نستسلم للنوم أثناءها.. وأغلب المدرسين لم يكن لديهم الحماس لأن يناقشوا أمور الدين معنا، بشكل يرضي فضولنا ويمس تفاصيل حياتنا. كانوا يجيبون على تساؤلاتنا البريئة بإجابات تقليدية تعبر عن أفكار بعيدة عن مفاهيمنا. ولم يكن مطلوباً منا سوى حفظ آيات قرآنية مكية تتوعد الكفار (الوثنيين) بالعذاب في الآخرة، وتعد المؤمنين بالفردوس الأبدي. فكنا نحفظها ونرددها دون أن نتعمق في فهم العبارات، أو ندرك دلالة الألفاظ، على الرغم من أن اللغة العربية الفصحى مرت بمراحل وتطورت ألفاظها وتغيرت معانيها واستخداماتها عبر العصور.

كنا نجهل أن قراءة وحفظ آيات القرآن الكريم لا يكفيان، فالمسلم مأمور من ربه بأن يفهم ويتعقل ويفكر ويعي كل كلمة في الكتاب الكريم. لم نعرف أن لكل آية سبب نزول أو أكثر، وأنه لكي نفقهها ونستوعب الدرس فيها لا بد من معرفة أسباب النزول، ولإدراك مغزى الآية لا بد من أن نحيط بشيء من السياق التاريخي وطبيعة المكان والزمان الذي نزلت فيه..

وفي منتصف السبعينيات ثار جدل عنيف حول وضعية المرأة، وتكررت في الصحف العربية كتابات تهاجم النساء العاملات وتطالب بعودة المرأة إلى البيت، والاكتفاء بتأدية دوري

الزوجة والأم، على اعتبار أنهما دوراها الرئيسيان، بل الوحيدان في الحياة.. وشاع فكر يهاجم سفور المرأة واختلاطها بالرجال واشتراكها في الحياة العامة وينتقد مطالبتها بالمزيد من الحقوق، بدعوى أنه تقليد أعمى للغرب، وأن له عواقبه الوخيمة على المجتمع الإسلامي والإنساني كله!!..

دوامة مفزعة من الأفكار بدأت تتكاثر في عقلي، وتتزاحم في رأسي.. كأنني المستهدفة شخصياً بكل تلك السهام الجارحة.. ووجدتني أتعثر في متاهة لا أول لها ولا آخر..

هل بعد كل ما بذلت من جهد في المدارس والجامعة، وبعد سهر الليالي الطوال للدرس والتحصيل، وبعد تحقيق التفوق وتبوأ الصدارة في فصول المدرسة ومدرجات الجامعة.. بعد كل هذا أحرم من جني الحصاد وقطف الثمرة التي زرعتها؟! هل أجري وراء سراب عندما أستمتع بعملي وأتطلع للصعود إلى أقصى درجات الترقي والنجاح فيه؟!..

من أنا بالضبط.. إنسانة ذات عقل وروح وضمير أم مجرد أنثى أقصى غايتها إرضاء رجلها ورعاية أبنائها؟!

وإذا فارقني الزوج والأبناء.. ما مصيري؟!

كل الاتهامات كانت توجه إلى المرأة من منطلق إسلامي.. ولذلك دفعني حرصي على ديني إلى أن أسعى لمعرفة الحقيقة.. ورحت أبحث عن إجابة عن هذا السؤال:

ما هو موقف الإسلام من المرأة؟..

سؤال يبدو بسيطاً ولكن الإجابة عنه استغرقت أربع سنوات من حياتي، قضيتها غارقة في قراءة ودراسة القرآن الكريم والسنة واللغة العربية والأدب والتاريخ الإسلامي والفلسفة الإسلامية.. وكل ما قدمته لي مناهج قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة.

كانت الرحلة طويلة ومرهقة لأني بدأتها وأنا في بداية الثلاثينيات من عمري، بعد أن تخرجت في الجامعة وعملت وتزوجت وأنجبت طفلين. ولكني استمتعت بكل لحظة فيها، وأنا أقتدي بقول الرسول المصطفى: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها». ولم يكن حصولي على ليسانس اللغة العربية من جامعة القاهرة نهاية المطاف، بل كان بداية لطريق طويل لم ينته حتى اليوم.. وكلما قطعت فيه شوطاً، زاد شغفي وفضولي، وكلما انتهيت من قراءة كتاب تعمق إحساسي بالجهل، فما زالت هناك مئات الكتب الأخرى التي أتوق إلى قراءتها.. وآلاف المعلومات التي لم تصل إلي بعد.. وعشرات المسائل التي تحتاج إلى المزيد من البحث.. ومن بينها مسألة الحجاب..

ونشرت منذ عام ١٩٨٠ بعض المقالات حول وضعية المرأة المسلمة. أما موضوع الحجاب فلم أشأ أن أحسم فيه أمري أو أطرح رأياً إلا بعد أن أجري دراسة وافية حوله.. لذلك رحت أطالع كل ما طالته يداي مما كتب عنه، وقد وفقني الله إلى الكثير من المعلومات والكتب والمراجع التي حرصت على تفهمها

بأقصى ما استطعت من موضوعية. ولم يكن يقودني في ذلك الدرب الوعر سوى سراج الإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى، والاقتداء بسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، عندما سأله البعض في أمر من أمور المعاملات فقال لهم:

«أنتم أعلم بشؤون دنياكم»، وكان يقول لأصحابه عندما تستبد بهم الحيرة: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون».

إن قضية الحجاب من أخطر القضايا التي أصبحت تمس سمعة المسلمين وتحدد موقفهم مما هو مطروح بشدة على ساحة العالم الحديث من قضايا إنسانية مثل حقوق الإنسان والديمقراطية والتمييز العنصري ومكانة المرأة ودورها في بناء مجتمع العولمة وغير ذلك. والاستهانة بهذه القضية لا تقل جرماً عن تضخيمها، في وقت تواجه فيه أمة المسلمين حرباً شعواء من أعدائها، الذين وجدوا في وضعية المرأة المسلمة ومسألة الحجاب ثغرة نفذوا منها وأشاعوا الإفك حول الإسلام، فزعموا بأنه دين يعطل العقل ويحجر على الرأي ويدفع المسلمين إلى الخضوع للماضي ومعاداة الحاضر، كذلك ادعوا أن الإسلام يزدري المرأة، ويحرمها من حرية التعبير والاختيار والتنقل.. الخ ويشجع على التفرقة بين المسلمين حسب النوع، وتمييز الذكور على الإناث وغير ذلك من افتراءات يدللون عليها، بكتابات بعض المسلمين وأقوالهم وأفعالهم.

إنني لا أقدم في هذا الكتاب فتوى، فللفتوى أهلها، ولا أفرض رأياً، إنما أطرح اجتهاداً متواضعاً، ليس سوى شمعة قد تضيء مسافة على طريق الحقيقة. وقد ينظر البعض للأمر بمنظار مختلف، وهذا وارد وحق للجميع، فالإسلام يعلمنا أن نقبل الخلاف في الرأي وأن نقارع الحجة بالحجة، ونقدم البرهان على ما نقول «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (سورة البقرة الآية ١١١). وأنصح بناتي وأخواتي القارئات ألا يكتفين بما سيقرأنه في هذا الكتاب، بل يمضين قدماً للبحث عن الحقيقة، معتمدين على أنفسهن، ومصادر المعرفة والاطلاع اليوم أكثر من أن تحصى أو تعد، وقد صارت سهلة وميسرة للجميع.

لنقتدِ بأفكار السابقين دون أن تكون قيداً علينا، ونستنير بأفكار وفتاوى السالفين دون أن نسبغ عليها قداسة تحجب عنا أنوار الحق في كتاب الله وسنة نبيه المصطفى، ولا تكون مسلمات القرن الحادي والعشرين كمن ذكرهم الخالق عز وجل في كتابه الكريم: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (سورة البقرة الآية ١١٧٠).

وليس لي في النهاية إلا أن أرجو الله المغفرة إذا كنت قد أخطأت، وأن أرجو من يقرأ هذا الكتاب، ويخالف ما جاء فيه أن يتذكر قوله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» (سورة النحل الآية ١١٢٥). وأردد ما قاله الإمام الشافعي: «إذا رأيتم في أقوالي ما لا يوافق كتاب الله وسنة رسوله فاضربوا به عرض الحائط».

الفصل الأول

خلفية تاريخية

خمسون عاما، منذ منتصف العشرينات حتى منتصف السبعينات من القرن العشرين، تخلصت فيها المرأة العربية من الحجاب واختفى تقريبا، في مدن مصر والشام والعراق وبعض مدن المغرب العربي، وكان في طريقه إلى التلاشي تماما من بقية المدن العربية إلى أن وقعت نكسة ١٩٦٧ وانهزمت الجيوش العربية، للمرة الثالثة، أمام الجيش الإسرائيلي، وبدأ العرب يراجعون أنفسهم في محاولة للكشف عن أسباب الهزيمة العسكرية العربية، وروج بعض الدعاة فكرة أن المسلمين هزموا أمام اليهود لأنهم تخلوا عن دينهم، وتخلت نساؤهم عن الحجاب، وقلدن النساء الغربيات المسيحيات في المطالبة بحقوقهن والخروج إلى الحياة العملية.. الخ!!

وفي بداية السبعينات، روع المجتمع المصري بأول جريمة إرهابية ارتكبتها جماعة شكري مصطفى الذي كان عضوا بجماعة الإخوان ثم قبض عليه واعتقل عام ١٩٦٥، وبعد خروجه من السجن شكل جماعة من الشبان يحملون فكرا دينيا متطرفا،

واقتحموا، الكلية الفنية العسكرية المصرية، رافعين شعارات دينية وقتلوا عددا من طلبتها. ومنذ ذلك التاريخ بدأت موجة من الجرائم الإرهابية في أنحاء مصر كانت ترتكب باسم الدين، وتزامنت معها موجة أخرى من الهجوم على المرأة شنها بعض أئمة المساجد من فوق المنابر وعلى أشرطة الكاسيت، ورددها آخرون في البرلمان وعلى صفحات الجرائد والمجلات والكتب وفي البرامج الدينية في الإذاعة والتليفزيون، وأشاعوا أن سفور المرأة وخروجها إلى العمل ومخالطتها للرجال.. الخ كان واحدا من أهم، إن لم يكن، أهم الأسباب وراء الهزيمة..

كان الشباب العربي ثائرا على الأوضاع السياسية المتردية في كل البلاد العربية، وغياب الديموقراطية، وتسلط الحكام العرب واستبدادهم بالشعوب العربية في الوقت الذي يتخاذلون فيه في مواجهة العدو الأول للأمة العربية: دولة إسرائيل. ولم تجد زعامات الشباب من متنفس لغضبها ووسيلة للتعبير عن وجودها وإعلان تمردها، إلى جانب الجرائم الإرهابية، سوى فتيات المدارس الثانوية والجامعات اللاتي انضممن إليهم، لأسباب سياسية وعاطفية. ويصاب المجتمع المصري بصدمة عندما تعلن بعض طالبات الجامعة، بالذات في كليتي الطب والهندسة، عن عدم رغبتهن في استكمال التعليم بدعوى أن تعليم البنت حرام في الإسلام!! وأن مهمة المرأة الأساسية في الحياة هي الزواج والإنجاب وطاعة الزوج ورعاية الأسرة.. ويظهر الحجاب على رؤوس عشرات الطالبات ثم ينتشر بسرعة بين

الفتيات من سن الخامسة عشرة إلى العشرين، ليبدأ في الانتشار بعد مقاومة ضعيفة، بين أمهاتهن والمدرسات ثم موظفات الحكومة ثم ينتقل إلى باقي الفئات والطبقات. وأصبح غطاء الرأس والحجاب والخمار والنقاب ألوية ترفعها الجماعات الإرهابية المتطرفة على رؤوس النساء كدليل على انتشارها وتمكنها من الاستيلاء على عقول الشباب.

ولا يمكن أن نفهم الأسباب التي أدت إلى استسلام النساء قديما لهذا الزي ثم ثورتهن عليه ثم العودة إليه مرة أخرى، إلا إذا تأملنا السياق التاريخي والاجتماعي الذي أحاط بهن على مدى قرن كامل أو يزيد. فالإنسان مهما تمرد أو بعد عن الطبيعة ما هو إلا جزء منها، يتأثر مرغما بتغييراتها وتقلباتها وينفعل بالزمان والمكان، يحاول قدر استطاعته أن يشكلهما وفق رغباته فيوفق مرة ويتعثر مرات، ولكنه في دأبه المتواصل يرتفع بالبناء الإنساني أو يهوى به ويرسم ملامح حضارته، ويترك بصمته على التاريخ.

التاريخ يصنعه البشر، يسطرون صفحاته بأفكارهم وأعمالهم ودمائهم، لكنهم مهما أوتوا من القوة ومن العبقرية لا يملكون التحكم في البداية ولا النهاية، بل ولا في أغلب التفاصيل. فالمرء لا يختار قبل ميلاده نوعه (أن يكون ذكرا أو أنثى)، ولا ملامحه أو لون بشرته، ولا العائلة التي سينشأ بينها ويحمل موروثاتها الجينية والحضارية، ولا العرق أو الجنسية أو الأرض التي سينتمي إليها، وقد يموت دفاعا عنها وعن كرامتها.

كان التاريخ البشري منذ أقدم الحضارات، ولا يزال، سجلا للصراعات الدموية بين أفراد وقبائل وشعوب وحضارات وعقائد دينية وسياسية، صراعات لا تنتهي على العرض والأرض، وعلى السلطة والثروة، وكان من الممكن أن ينتهي الأمر بفناء الإنسان لولا رحمة الخالق عز وجل، وطبيعة المرأة، شريكة الرجل على الأرض ونصف البشرية، التي تنأى عن كل تلك الأمور، وترفض بإصرار أن تتخلى عن مهمتها المقدسة: الحفاظ على الحياة.. خلق الله المرأة بطبيعة تهوى الجمال وتعشق النظام وتميل إلى نشر الحب والوئام، فهي الأم الرؤوم حتى وإن حرمت من الإنجاب، وهي العاشقة المحبة لكل من حولها حتى آخر لحظة في حياتها، وهي البنت الوفية حاملة التراث الحضاري تنقله من جيل إلى جيل، عبر أغانيها الشجية وحكاياتها المثيرة وميلها إلى الحكي والبوح والمصارحة. ولأن هذه هي المرأة بطبيعتها منذ أن خلقت حواء حتى يومنا هذا، فلم تشارك في عمليات الإغارة والسلب والنهب التي رآها الرجل شجاعة وفروسية حقق فيها البطولات والأمجاد وجنى الثروة وصعد إلى ذروة السلطة.. الخ ولم تستطع المرأة رغم سطوتها على قلبه وتملكها لمشاعره، أن تمنعه عنها أو حتى تقوم بمهمتها في حفظ البشرية دونها، فلا مناص من الاعتراف بأن كل المعارك السياسية والمسلحة فيها المهاجم والمدافع، وأن شجاعة الرجل وقوته البدنية كانت الحصن الذي احتمت به المرأة ضد هجمات الغزاة والهمج والأشرار. فالرجل والمرأة ليسا ضدين أبدا وإنما هما نصفان، يكملان بعضهما البعض؛ هو الأمن وهي الحياة، وبدون أي منهما لا يمكن أن تتواصل المسيرة أو تبنى الحضارات وتتقدم الأمم.

وبدلا من أن تتكاتف جهود المرأة والرجل ليبنيا معا عالما يسوده الأمن والحب، إذا به يستغل حاجتها إلى حمايته لكي يبسط سلطانه عليها، ويعتبرها جزءا من غنائمه وأسلابه. والمتأمل للتاريخ البشرى يتبين نفس التفاصيل في صراع الشعوب ضد بعضها البعض، كأنما قصة الرجل والمرأة ما هي إلا معادل موضوعي لما يجري على مسرح التاريخ.. طرف يغتر بقوته فيسعى إلى فرض سطوته، وعلى الجانب الآخر طرف آخر قد يستسلم إلى حين، لكنه يرفض السيطرة عليه بحجة حمايته، ويفعل كل ما بوسعه لكي يتحرر منها..

لقد ساهم العرب في صنع التاريخ على مدى فترات طويلة بدأت منذ القرن السابع الميلادي وانتهت في بداية القرن السادس عشر باحتلال الأتراك العثمانيين لكل الوطن العربي وما حوله من بلاد. وعلى مدى أربعمائة عام ذبلت الشخصية العربية وأصيب العقل العربي بالخمول بل بالشلل التام، وخمد الصوت العربي إلا من بعض الأنين. فقبل مائة عام لم تكن كلمة عربي مدرجة في القاموس الغربي السياسي.. كانت كل الشعوب العربية الخاضعة لحكم السلطان التركي العثماني تنسب إلى تركيا.. ولم يكن العرب يشعرون بأي غضاضة لذلك فالمصري والشامي والعراقي والحجازي والمغربي والسوداني.. الخ كانوا جميعهم يحملون وثائق سفر تركية عند مغادرتهم حدود السلطنة.. وكانوا يعظمون العلم التركي ويدعون للخليفة التركي في صلاة الجمعة بطول البقاء، كأنهم يتمنون أن يظل قابعا فوق صدورهم، ناهبا لثروات بلادهم إلى الأبد!..

وفي بداية القرن التاسع عشر بدأت أعراض الشيخوخة تظهر على الخلافة العثمانية، وبدأ العالم العربي يتنسم فكرة الحرية والتخلص من حكم الأتراك الغاشم الغشيم، وكتب رفاعة رافع الطهطاوي يشرح للناس معنى الديموقراطية وأهمية الدستور، ووظيفة البرلمان والصحافة، ومغزى شعار العدالة والمساواة والإخاء الذي رفعته الثورة الفرنسية وتمسكت به الشعوب الأوروبية طريقا إلى النمو وإلى التقدم والرخاء.

وأثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)، بدا واضحا أن عالما جديدا يتشكل، وأن قوى أوروبية تعمل على أن تسوده وتحل محل الإمبراطوريات القديمة، وإنها لم تجد وسيلة إلى ذلك سوى فرض هيمنتها على العالم العربي، والحيلولة دون نهضته واستقلال شعوبه. إلا أن بصيصا خافتا من الأمل يلوح في الأفق بعد أن يعلن الرئيس الأمريكي ويدرو ويلسون في الثامن من يناير ١٩١٨م مبادرة جديدة تتضمن أربع عشرة نقطة كأساس للسلام، ومن بينها مبدأ احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها. وفي ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ وقع الحلفاء الهدنة مع تركيا، ثم أعلنت نهاية الحرب العالمية الأولى وتم توقيع الهدنة بين الدول المتحاربة في الحادي عشر من نوفمبر، وبعدها بيومين فقط غزت جيوش الحلفاء مدينة اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية ولما كان الرئيس الأمريكي ويدرو ويلسون قد حضر مؤتمر الصلح في باريس، ودعا إلى تأسيس عصبة الأمم، فقد تم إقرار ميثاق عصبة الأمم في ١٤ فبراير ١٩١٨م.

وعقد المتحاربون مؤتمرا للصلح (أو بمعنى أصح لتقسيم الغنائم) في باريس يوم ١٨ يناير ١٩١٩م. وقررت الدول الكبرى سلخ أرمينيا وبلاد العرب عن تركيا والاعتراف مؤقتا باستقلالها بشرط أن تتلقى المساعدة والمشورة من دولة منتدبة (!) كان المفروض أن تتاح الفرصة لكل الأطراف للتعبير عن آرائهم وإعلان مواقفهم، ولكن الفرصة لم تتح للوفد المصري للمشاركة في المؤتمر، وحضره الأمير فيصل بن الحسين الذي طالب بوحدة واستقلال كل الدول الناطقة بالعربية. ويبدو أن ذلك كان بمثابة إنذار نبه الدول الاستعمارية، فقررت اتخاذ كل السبل للحيلولة دون إتمام ذلك الحلم، وعملت على زرع الحدود الفاصلة المتعسفة بين الشعوب العربية، وإرغام حكوماتهم على استخدام وثائق سفر، وبذر بذور الشقاق بينهم، بغرض تفتيت العالم العربي إلى دويلات منفصلة.. الخ. كان حلم الوطن العربي قد بدأ ينمو ويكبر في قلوب المفكرين العرب، وعبر عن نفسه في التاسع من فبراير أثناء انعقاد المؤتمر الفلسطيني الأول بالقدس، الذي طالب فيه المجتمعون باعتبار فلسطين جزءا من سوريا، ولكن هذا لم يتحقق بالطبع، لأن بريطانيا العظمى كانت تضمر لفلسطين مصيرا آخر.

تلك كانت باختصار شديد بعض تفاصيل عملية التجميل المؤلمة التي غيرت ملامح عالم القرن العشرين، فأصبح مختلفا كل الاختلاف عن عالم القرن الذي سبقه. فتح القمقم على هدير المدافع وأزيز الطائرات، واستيقظ المارد العربي من سباته

الطويل وبدأ يتأهب للانطلاق، فإذا بمن يحاول إغلاق القمقم وحبسه مرة أخرى داخله! شهد المسلمون صرح الخلافة الإسلامية يتهاوى، ورأوا مظلة الحكم التركي التي تصوروها ستحميهم إلى الأبد تتمزق وتتناثر أشلاؤها.. واستيقظت رغبة الشعوب العربية في الاستقلال، بعد أن نزع عنهم رداء العثمانية الذي ظل يحجبهم عن التطور والحياة قرابة خمسمائة عام، وأدرك العرب لأول مرة منذ قرون عديدة أنهم قوة ضخمة يمكن أن تواجه العالم، وأن توجهه وتشارك في بنائه الجديد، إذا ما توفرت لدى حكامه وشعوبه وأفراده إرادة الوحدة والرغبة في الوجود المستقل.

وفي مصر بدأت العواصف السياسية تهب بعد مرحلة سكون وترقب، فالرجال المصريون الذين تحملوا على مضض الحماية التي فرضتها دولة بريطانيا العظمى على بلادهم بدعوى تجنيب مصر ويلات الحروب (العالمية)، بدأوا يتطلعون بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى الفكاك من أسر بريطانيا والمطالبة باستقلال مصر. وفي الثامن من مارس أمرت سلطات الاحتلال البريطاني في مصر باعتقال ونفى سعد زغلول ورفاقه الثلاثة إلى مالطا: إسماعيل صدقي وحمد باشا الباسل ومحمد باشا محمود، لأنهم تجاسروا وعبروا للمعتمد البريطاني عن رغبة المصريين في استقلال بلادهم، وحكم أنفسهم بأنفسهم.

كان نفي سعد ورفاقه بمثابة الشرارة التي أشعلت النار الكبرى، ورغم أن السلطات البريطانية منعت نشر الخبر في الصحف، فقد انتشر كالنار في الهشيم، وخشي تلاميذ المدارس أن يحدث لسعد ما حدث مع عرابي من قبله، ذلك البطل المصري الذي هب في وجه الظلم وطالب بالحق فما كان من الإنجليز إلا أن نفوه خارج البلاد، ولم يعد من النفي إلا بعد ١٩ سنة. وفي التاسع من مارس من عام ١٩١٩ اندلعت ثورة الشعب المصري احتجاجا على نفي الزعماء المصريين، ولم تتوقف إلا في ٨ إبريل بعد الإفراج عن سعد وزملائه. وكأنما تمزقت الشرنقة التي حبست بداخلها المرأة المصرية، ولأول مرة في تاريخ مصر والعالم العربي كله خرجت النساء في مظاهرات التأييد لزعماء الثورة، وبدأن يشاركن بكل ما يملكن من مال وجهد في معركة التحرر الوطني؛ يلقين الخطب الحماسية ويوزعن البيانات ويرفعن لافتات المقاطعة والرفض للاحتلال والاحتجاج على سياساته المتعسفة ويعلن شعار الوحدة الوطنية في مواجهة مؤامراته للتفرقة بين أبناء الشعب الواحد..

وفي تركيا بدأت الأحداث تتوالى لتغير صورتها تماما وتلغي ملامحها القديمة كلية ففي ١١ سبتمبر ١٩١٩م تم انتخاب كمال أتاتورك رئيسا لحكومة مؤقتة، وبعدها بأسبوع فر الخليفة التركي إلى بريطانيا متخفيا داخل عربة إسعاف. وفي أول نوفمبر أصدر البرلمان التركي قرارا بإلغاء السلطنة في تركيا مع احتفاظ محمد السادس بلقب الخليفة. وفي أول يناير ١٩٢٠ اعتمد البرلمان التركي الميثاق الوطني الذي ينص على استقلال تركيا في حدودها الوطنية.

وهكذا اتضحت الحقيقة، ولم يعد ثمة أمل في العودة إلى أحضان (ماما) تركيا مرة أخرى، حيث أن أبناءها الشرعيين لفظوا أبناءها المتبنين، وأصبح على هؤلاء أن يقفوا على سيقانهم الضعيفة المرتعشة وأن يحاولوا السير وتكملة الطريق نحو المستقبل دون معاونة. وكان أول من تنبه إلى أهمية التمصير والاعتماد على النفس هو طلعت حرب الذي بدأ تأسيس بنك مصر في ٧ مايو من نفس العام، ويبدو أن الحياة كانت ترسم السيناريو بمهارة فعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي كانت حركة التحرر تجري بسرعة مدهشة، ففي الثامن عشر من أغسطس تم تعديل المادة ١٩ من الدستور الأمريكي ومنح النساء حق التصويت، وتم تأسيس عصبة النساء الناخبات League of Women Voters وافتتحت في أغسطس أول إذاعة مرخصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

في هذه الأثناء كانت المرأة المصرية تتسلل رويدا إلى مقدمة المسرح، بحثا عن دور رئيسي تلعبه، دور من حقها ولكنه حجب عنها بفعل فاعل، تماما كما حدث مع بلادها مصر، فبعد أن نشرت عائشة التيمورية وزينب فواز عدة كتب في الشعر والرواية، وحررت النساء السوريات والمصريات عددا من المجلات النسائية الجديدة، وألقت ملك حفني ونبوية موسى المحاضرات في الجامعة الأهلية، بدأت سيدة مصرية أخرى تمزق الشرنقة وتخرج إلى الحياة فراشة جميلة زاهية الألوان تدعى هدى شعراوي، زوجة واحد من كبار الأثرياء المصريين

ومن رفاق سعد، الزعيم الصاعد إلى سدة الشعبية في مصر، والذي دعته هدى إلى افتتاح معرض الربيع للفنون التشكيلية الذي أقامته الجمعية المصرية للفنون برعايتها، ولم تكتف هدى بهذا النشاط الفني المبكر بل اقتنت كل اللوحات والأعمال الفنية التي عرضت فيه تشجيعا لذلك الفن الراقي.

تشكلت وزارة عدلي يكن الأولى في ١٦ مارس وبدأ بعدها السفر إلى لندن لعقد المفاوضات مع الإنجليز بصفته رئيس الوزراء، وعاد سعد زغلول من أوروبا في الخامس من إبريل ١٩٢١م، وأخذ يشن حملة شعواء على عدلي، معلنا عبارته الشهيرة «إن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس» واستجابة لرفض سعد، ثارت[1] مظاهرات دامية في الإسكندرية احتجاجا على تعيين عدلي يكن رئيسا للوفد. وفي الخامس من ديسمبر صدق حدس سعد، وعاد عدلي من أوروبا معلنا فشل مفاوضاته مع الإنجليز، وقدم استقالته فقبلها (الأمير) أحمد فؤاد. وتتطور الأمور، فتعود سلطات الاحتلال إلى استعراض عضلاتها بنفي سعد وبعض مؤيديه إلى سيشيل في ٢٩ ديسمبر ١٩٢١م.

ويستمر الصراع بين المغتصب والمغصوب، بين الطرف القوي الذي يفرض حماية باطلة على طرف آخر لا يحتاج إليها ويرفضها، إلى أن تذعن الحكومة البريطانية أخيرا وتصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ بإنهاء الحماية على مصر مع

---

[1] هدى شعراوي الذكرى المئوية ٨٢.

التحفظات الأربعة، وينتهز الأمير احمد فؤاد الفرصة فيكافئ نفسه بلقب ملك البلاد (نفس لقب ملك إنجلترا) بعد أسبوعين فقط من إعلان إنهاء الحماية (في ١٥ مارس). ويعود الزعيم المغضوب عليه سعد زغلول من منفاه في سيشيل ٢٩ مارس.

وبينما الرجال يتصارعون على مقاعد الحكم والزعامة السياسية، تستمر مسيرة الفتاة المصرية نحو الأمام في ثقة وإصرار ممتطية فرسي السبق: العلم والعمل، ولأول مرة تسافر فتاة مصرية هي كوكب حفني ناصف إلى إنجلترا لدراسة الطب، وتنضم فتاة أخرى لبيبة هاشم، إلى كتيبة المناضلات عبر الكلمة في الصحافة فتصدر مجلة جديدة هي مجلة «النهضة النسائية». وتسافر هدى شعراوي وسيزا نبراوي ونبوية موسى إلى روما لحضور المؤتمر النسائي الدولي الذي تحدثن فيه بطلاقة عن القضية المصرية وعن الإسلام والحقوق التي كفلها للمرأة، وأثرن إعجاب الغربيات بل انبهارهن، واستطعن أن ينفين عن دينهن الحنيف التهم الباطلة باضطهاده للمرأة وازدرائها[1].

وعاد الوفد النسائي من روما والثقة تملأ قلوبهن والأمل في مستقبل أفضل يدفعهن إلى المطالبة بأن يتضمن الدستور المصري الجديد حقوق المشاركة السياسية للنساء وذلك لكي يتمكن من بذل المزيد من العطاء، ولم لا..؟! ألا يقود المصريين اليوم رجال أحرار مستعدون لبذل كل نفيس وغال في سبيل حرية مصر والمصريين.. كل المصريين؟! ألم تصبح الحرية هي

---

[1] هدى شعراوي الذكرى المئوية ٧١.

Reread Falton

الأمل المنشود الذي يسعى إليه الجميع، والأغنية التي تتردد على ألسنة المصريين وكل العرب؟! وفي الولايات المتحدة الأمريكية (بلد ويدرو ويلسون صاحب المبادئ الأربعة عشر للتحرر واستقلال الشعوب) تم انتخاب أول امرأة لعضوية الكونجرس الأمريكي (ريبيكا فلتون عن ولاية جورجيا). إذن فقد تمزقت الحجب وانهارت السدود وتحطمت الأغلال، ولا بد لفيضان الحرية من مجرى يجرى فيه ويروي الأرض العطشى للحياة.. وتنتهز هدى شعراوي الفرصة فتقوم بإعلان تأسيس الاتحاد النسائي المصري (في مارس ١٩٢٣) لتنظم صفوف النساء وتوجه مسيرتهن إلى الأمام، ورغم ذلك، ورغم كل ما فعلته النساء المصريات وما قدمنه كدليل على أهليتهن للاستقلال والحرية، فقد تم في ١٩ إبريل إعلان الدستور المصري خاليا من الحقوق السياسية للمرأة!..

وتتوالى الصدمات من الشمال الشرقي، إلى حيث ما زالت ترنو أبصار المتشبثين بالماضي وبالأمجاد الوهمية، ففي ٢٩ أكتوبر يتم إعلان الجمهورية التركية، وينتخب مصطفى كمال (أتاتورك) رئيسا لها، وفي ٣٠ مارس يعلن أتاتورك إلغاء الخلافة في تركيا ونفي السلطان المخلوع عبد المجيد الثاني والأسرة المالكة من البلاد. وفي ٤ مارس يعلن إلغاء المحاكم والمدارس الدينية في تركيا. وتتشجع صحفية مصرية، منيرة ثابت، فتكتب في مجلة «الأمل» التي كانت تحررها، مطالبة الزعيم سعد زغلول، رئيس الوزراء آنذاك، بتخصيص مكان للسيدات في

شرفة البرلمان بعد افتتاحه، ويوافق الزعيم سعد زغلول على أن تمنح المرأة المصرية مقعدا واحدا في الشرفة ترقب فيه أحداث البرلمان، في الوقت الذي كانت فيه زوجات السفراء والقناصل الأجانب تجلسن في القاعة الرئيسية! وفي الولايات المتحدة يتم انتخاب رئيستين لولايتي وايومنج وتكساس!..

وتستمر المسيرة إلى الأمام، رغم المحاولات الضارية لإعاقتها فيؤسس بنك مصر شركة مصر للمسرح والسينما برئاسة محمد بيومي وتبدأ شركة إنتاج سينمائية تحت اسم: مصر فيلم، وتنتج أول فيلم مصري. وتشعر أشهر ممثلة مسرح مصرية بأهمية وخطورة الصحافة كمنبر للحرية والتوعية والنضال السياسي، فتصدر روز اليوسف مجلة باسمها. ويتم تحويل الجامعة الأهلية إلى الجامعة المصرية، يرأس أول مجلس لإدارتها علي ماهر، ويعين احمد لطفي السيد مديرا لها بعد أن كان وكيلا للجامعة الأهلية.

وتشعر المرأة المصرية بحاجتها إلى التواصل مع العالم المتحضر، فتسافر هدى ورفيقاتها لحضور العديد من المؤتمرات الدولية، وفي عام ١٩٢٥م، تصدر مجلة «المصرية» باللغة الفرنسية برئاستها وسكرتارية تحرير سيزا نبراوي (وستظل تصدر حتى عام ١٩٤٠)، وفي عام ١٩٣٧[١] تصدرها باللغة العربية (حتى ١٩٤٠). أما لماذا بدأت «المصرية» باللغة الفرنسية فلأن الفكر العثماني الذي غلف العقول المصرية

---

[١] هدى شراوي الذكرى المئوية ٧٣.

وحجر علبها طويلا لم يسمح للحكومات المصرية بإنشاء مدارس لتعليم الفتيات، وبادرت إحدى زوجات الخديوي إسماعيل بإنشاء المدرسة السنية للفتيات في نهاية القرن التاسع عشر، ولكنها لم تتبع بمدارس أخرى، بينما تسللت مدارس الارساليات التبشيرية الأجنبية إلى مدن ومحافظات مصر لتقوم بالمهمة الخطيرة التي تخلت عنها الحكومات المصرية: تنوير مصر عن طريق تعليم بناتها. وتنتظر بنات مصر حوالي نصف قرن حتى تفتتح عام ١٩٢٤ أول مدرسة ثانوية: شبرا الثانوية للبنات؛ وكانت أول ناظرة لها أنصاف سري! لقد أحست الطبقة العليا في مصر بأهمية تعليم بناتها، فبدأت بتوفير الدروس الخصوصية لهن داخل البيوت والقصور، ثم أرسلت الفتيات إلى المدارس الفرنسية التبشيرية والإنجليزية، لتبدأ بذلك فجوة بين نساء مصر والمجتمع الذي يعشن فيه. فجوة ما زالت تعيش إلى يومنا هذا، تجبرها على العيش في دوامة لا نهائية، لا تعرف هل هي مقيدة بسلاسل أبدية إلى الماضي، أم أن تعليمها وثقافتها وملكاتها تؤهلها لقيادة العصر الحديث إلى المستقبل!!.

سؤال لم يزل يبلبل فكر الفتاة المصرية ويعطل نموها العقلي، ويدفعها أحيانا إلى ارتكاب أخطاء فادحة في حق نفسها، كأن تهمل التعلم رغم أنه المصباح الذي سيقودها نوره إلى الحرية والكرامة، وتتقاعس عن الخروج إلى العمل وممارسة حقها في الاستقلال المالي والاستمتاع بذمة مالية مستقلة، رغم أن العمل هو الخطوة الأولى نحو استمتاعها بكل حقوقها الدستورية التي منحت لها بسخاء منذ إعلان دستور ثورة يوليو، عام ١٩٥٦.

وفي تركيا تستمر خطوات محو الماضي العثماني، والتخلص من كل آثاره بكل همة، ففي الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٢٥ يحظر لبس الطربوش، بموجب قانون يلزم الرجال في تركيا بلبس القبعة ويضع من يخالفه تحت طائلة المحاكمة والحكم عليه بعقوبات تتراوح ما بين السجن والإعدام، وتندلع الاضطرابات في مدن تركيا احتجاجا على ذلك القانون الغريب، وترد الحكومة التركية على ذلك بإصدار قرار بحل جمعيات الدراويش وإلغاء وظائف المفتي والإمام والملا وحظر ارتداء العمامة!..

ولأن أي زلزال يحدث في تركيا لا بد أن تكون له توابع، وأصداء في مصر والعالم الإسلامي، فقد ثار على إثر ذلك جدال واسع في مصر وبعض الدول العربية حول ارتداء الرجال القبعة «البرنيطة» وتركهم العمامة، فرأى البعض أن «البرنيطة» أفضل من الطربوش، وذهب آخرون إلى تكفير من يرتديها على اعتبار أن الطربوش هو الزي الإسلامي لرؤوس الرجال، رغم أنه في الأصل مأخوذ عن اليونانيين ثم غير فيه الأتراك وبدلوا. ووصل الأمر إلى أن بعثت جمعية الرابطة الشرقية في ١٨ مايو ١٩٢٦ إلى الجمعية الطبية المصرية تستفتيها في الملابس الصحية، ونشرت مجلة «المقتطف» قرار الجمعية الطبية المصرية مفصلا، جاء فيه «أن غطاء الرأس يجب أن يكون خفيفا كثير المسام لتجديد الهواء وتسهيل التبخير، ومانعا لحرارة الجو الخارجية في الصيف، وحافظا

لحرارة الرأس في الشتاء، ويجب أن تكون حافته السفلى واسعة وبحالة يمكن دخول الهواء منها بسهولة، مع ملاحظة امتداد زائدتين، واحدة من الأمام لوقاية العينين وحمايتهما، والثانية من الخلف لوقاية مؤخرة الرأس». ورأت الجمعية أن «الطربوش الثقيل ذا الصوف السميك الخالي من المسام بلا نزاع ضار بالعينين والرأس.. والجمعية ترى أن أفضل لباس للرأس يوافق الجو في مصر في زمن الصيف هو القلنسوة (الكاسكيتة) أي البرنيطة البيضاء المصنوعة من الفلين والتي بها ثقوب كافية للتهوية في أعلاها وبدائرتها السفلى.. الخ وإذا كان لا بد من استعمال الطربوش فليكن في الشتاء وإلا فالقبعة أصلح منه في الشتاء أيضا»[1]..

ويستمر الجدل حول الطربوش والعمامة والقبعة والكاسكيتة دون أن يستقر المسلمون العرب على أمر، رغم أن كتب السنة تذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يرتدي القلنسوة اليمنية، ويقال أن الأوروبيين أخذوا عن اليمنيين قلانس القش ثم طوروها بعد ذلك وأصبحت علما عليهم. وكان لا بد أن يتبع الجدل حول غطاء رأس الرجال جدل آخر حول ملابسهم، ويثور سؤال: هل لبس البدلة والبنطلون حرام أم حلال؟! ويتواصل الجدل حول جدوى الحجاب للمرأة أيضا، خاصة بعد أن طالب قاسم أمين في كتابين متتالين بتخلصها منه. وأعلن أن السفور هو الأصل في الإسلام، وأنه لا يوجد في

---

[1] السفور والحجاب. نظيرة زين الدين.

القرآن الكريم ولا في السنة الصحيحة أي نص يفرض على المرأة أن تغطي وجهها وكفيها ..الخ وتشتعل معركة الدعوة إلى سفور المرأة لدرجة أن تصدر مجموعة من المطالبين به صحيفة يطلقون عليها اسم «السفور»، تكرس مقالاتها لدعوة المرأة إلى التخلص من رمز عبوديتها وأن تنطلق إلى الحياة لتتعلم وتعمل وتعتمد على نفسها وتساهم في بناء بلدها، ويرد خصومهم باتهامهم بالخروج عن الدين ويطلقون عليهم لقب السفوريين..

وتنتهز هدى شعراوي فرصة عودتها من الخارج على نفس الباخرة التي عاد عليها سعد زغلول باشا ورفاقه من منفاهم الثاني، فتستأذنه في رفع الحجاب عن وجهها، فلا يمانع ، حسب روايتها، وتتبعها في ذلك تلميذتها وربيبتها سيزا نبراوي، ويواجهن معا آلاف المستقبلين للزعيم بوجوه سافرة فلا يلحظن معارضة منهم، وتتسع الدائرة شيئا فشيئا، فتنضم أخريات إلى ركب السفوريات، إلى أن يتلاشى تماما بعد نصف قرن من تلك الحادثة.. ولا يعود إلا مع الجماعات الدينية المتطرفة في منتصف السبعينات..

وتتصاعد الأحداث حتى تصل إلى ذروتها في بداية عام ١٩٩٠ الذي بدأ بإقالة وزير الداخلية زكي بدر، وتعيين اللواء محمد عبد الحليم موسى الذي كان محافظا لأسيوط، واتهمته الصحافة بتدليل الجماعات الدينية بها وعقد اللقاءات مع زعماء جماعة الجهاد. ويكفي أن نستعيد بعض وقائع الحادث الإرهابي الأول في ذلك العام في عهد الدكتور عاطف صدقي

رئيس الوزراء، وكان اللواء محمد عبد الحليم موسى وزيرا للداخلية والدكتور محمد علي محجوب وزيرا للأوقاف والدكتور محمد سيد طنطاوي مفتيا للجمهورية واللواء عبد التواب رشوان محافظا للمنيا لكي نصل إلى تأثير أعمال العنف التي ارتكبتها الجماعات المتطرفة لإرهاب المرأة المصرية، وإثارة الذعر في قلبها، وحملها على إطاعة أوامرهم خوفا من بطشهم الغاشم.

فبعد فترة وجيزة من تعرض اتوبيس سياحي كان يقل سياحا من اليهود للاعتداء، حدث عقب صلاة الجمعة الموافق ٢٨ فبراير ١٩٩٠ أن تجمع عدد كبير من شباب الجماعات الدينية المتطرفة ومعهم بعض الأحداث أمام مسجد الحق «تحت الإنشاء» بمدينة أبو قرقاص، ووضعوا أمام المسجد صفائح مملوءة بالكيروسين وكرات القماش والعصي والجنازير وقام خطيب المسجد من الجهاد بتهييج المصلين ودعوتهم للجهاد والانتقام من الصليبيين (روز اليوسف ١٩ مارس) وقاموا باختطاف شابين مسيحيين وحرق مصنع حلويات يملكه الأول تحت سمع وبصر رائد شرطة وقوته كانوا قد كلفوا بحراسة هذا المصنع، وإحراق وإتلاف كنيسة بقرية بنى عبيد التابعة لمدينة أبو قرقاص وإحراق محل بقالة وسوبر ماركت وتهشيم واجهة صيدلية وتدمير مطعم وحرق سيارة خاصة لطبيب.. وقام أعوانهم بحرق كنيسة الأقباط الكاثوليك وكانوا في طريقهم لحرق بيوت «النصارى» بهذه القرية بإلقاء كرات النار على

بيوتهم وإلقاء حجارة ملفوفة بخطابات تهديد ووعيد على الكنائس لولا تدخل عضو مجلس الشعب وتصدى كثير من العائلات المسلمة والقبطية لهم.

أما السبب وراء تلك الحوادث المؤسفة فكان توزيع الجماعات الدينية المتطرفة يوم الاثنين ٢٦ فبراير منشورا أعطوه عنوانا مثيرا «أعراض المسلمين بين اليهود والصليبيين»، وجاء فيه: إن من مات دون عرضه فهو شهيد، وقد زعم كاتب المنشور أن شابين مسيحيين يقومان بممارسة الجنس مع الفتيات المسلمات في صالة متسعة بشقة فاخرة وفسيحة في مدينة شبة المنيا، يديرها للدعارة رجلان أحدهما أمريكي والثاني يهودي صهيوني (الحوادث ٢٢ مارس)، ويقومون بتصوير المشهد الجنسي الجماعي بالفيديو بكل الأوضاع الشاذة التي تعجز الكلمات وتستحي العبارات عن وصفها، ويعطون كل فتاة خمسمائة جنيه، كما يعطوهن حقن ماكس وتذاكر بودرة وهيروين بكميات كبيرة تحت التهديد ثم يقومون ببيع ومداولة الأشرطة بين أيدي «النصارى النجسة»، وفي نهاية البيان الذي ذكرت فيه أسماء بعض الشباب المسيحي وبعض الفتيات المسلمات طالبوا المسلمين بالانتقام، وقد وزعت هذه المنشورات بكثافة في جميع مراكز وقرى المحافظة ونشرت (جريدة الأحرار في ١٩ مارس ١٩٩٠) صورة بالزنكوغراف للمنشور. وقد اتضح أن فتاة بمدرسة القومية الثانوية للبنات اعترفت أن جماعة الجهاد أجبروها بعد أن ضربوها وألبسوها خمارا وجوانتى

(روز اليوسف ١٩ مارس) على أن تعترف زورا أمام أجهزة الشرطة بقصة وهمية كانت قد اختلقتها حول شقة يديرها مجموعة من الشبان المسيحيين، دون أي سند من حقيقة، اعترف المتهم الأول بإثارة الفتنة بذلك وهو طالب بالسنة الأولى بكلية التربية بالمنيا (الأهرام ٢٤ مارس).

وفي تقرير لمجلة المصور الصادرة يوم ٢٣ مارس ١٩٩٠، تأكيد على أن هناك من يحرص على أن تتسع مساحة الفتنة لتشمل بر مصر كلها، وبرصد انتشار الشائعات في ريف مصر وجد أنها تصب في قناة واحدة: شبان مسيحيون اعتدوا على بنات مسلمات؛ مرة يكون الشاب المسيحي مدرسا والبنت محجبة، وأخرى يكون الشاب في سن المراهقة الخطرة والفتاة في نفس سنه الصعبة..

وقد اعترفت الفتاة التي فجرت الشائعة بإعجابها بالفنانة شيريهان، ومحاولة تقليدها وأنها كانت تسرح بزميلاتها فحكت لهم حكاية وهمية، سرعان ما وصلت إلى أعضاء جماعة الجهاد فأصروا على أن ينتقموا من المسيحيين رغم أنها اعترفت لهم بكذبها!

في ٢ مارس ١٩٩٠ حدثت مصالحة وطنية بين المسلمين والمسيحيين، ورغم ذلك ذكرت المصور على لسان المحافظ أن أعضاء الجماعات المتطرفة كانوا يثيرون المشاكل في المنيا منذ ثلاث سنوات وأنهم يسعون إلى إشعال فتنة لزعزعة أمن مصر، واعترف أنه حاول أن يقدم لهم ما يشبه الرشوة على شكل عرض بتشغيل أي فرد منهم (من المتطرفين)! أي مكافأته

بإعطائه مشروعا منتجا، وقد استجاب البعض، لكن البعض الآخر أكد رفضه وعناده.. «وأصبح ذا عقول مغلقة وبؤر للفساد، وقد حاورناهم مئات المرات وبكل الطرق وعبر جميع الأساتذة العلماء لكنهم ظلوا على موقفهم الرافض للتغيير» (المصور ٢٣ مارس).

والكارثة أن يتم اتفاق ودي بين مدير الأمن الذي فصل فيما بعد، وبين أمير جماعة الجهاد على أن يتولى الأخير وجماعته ضبط القضايا المخالفة للدين وتسليمها للأمن!! (روز اليوسف في ١٩ مارس)، وقد نشرت نص المنشور الذي جاء فيه «امسحوا العار يا مسلمين» في ١٩ مارس، واتضح أن صاحب الشقة المذكورة مسلم وليس مسيحيا، وأنه يمتلك بوتيك لبيع مستحضرات التجميل أسفل العمارة، وشقة مغلقة منذ فترة حيث عثرت أجهزة الأمن على كمية من الأتربة والعنكبوت ومبيدات الصراصير منتشرة بها. ويقطن أسفل الشقة أستاذ ملتح بجامعة المنيا وجميع سكان العمارة من الموظفين وأساتذة الجامعات.

المحصلة النهائية للخسائر حتى ٢٢ مارس وفق تقرير جريدة الحوادث العربية: إحراق خمس صيدليات وخمس كنائس وخمس سيارات خاصة وسيارة نصف نقل ومصنع للحلوى ومحل للعلف ومكتب ووحدة صحية مدرسية وكنيسة مار جرجس وكنيسة خلاص النفوس وكنيسة السيدة العذراء ومستودعي خشب ومحمصة واستوديو تصوير ومحلي بيع ساعات ومحل بيع أدوات صحية ومتجر وصالون حلاقة ومكتبة و بعض التلفيات

في جمعية الشبان المسلمين، ثم نشرت جريدة الأهالي في عددها الصادر يوم ١٤ مارس ١٩٩٠ قائمة طويلة بالخسائر التي لم يعلن عنها.

تلت ذلك حادثة انفجار قنبلة في كنيسة سنهور ومقتل الجندي الواقف على بابها، وأحداث شغب أخرى بالفيوم، ارتكبتها جماعة «الشوقيون» الذين يتبعون شوقي الشيخ الذي لقي مصرعه على أيدي الشرطة في قريته سنرو بالفيوم فجر ٢٦ إبريل، وكان شوقي قد أثار حربا شعواء على أعضاء الجماعات الأخرى وكفر الحكومة وكل من يعمل معها، وكان يطلق على نفسه أمير المؤمنين وتلقبه جماعته بابي عبد الله. وقد ترددت حول شوقي هذا قصص كثيرة منها ما يحكى عن زوجته التي أسماها أم المؤمنين، وكانت تعاونه في تزويج أفراد الجماعة من فتيات تجمعهن وتلقى عليهن محاضرات دينية، وقد جمعت ٢ كيلو من الذهب من عضوات الجماعة بعد أن بادرت بالتبرع بحليها. وقد حولت الجماعة قرية كحك إلى مخزن سلاح علني.

وبعد ذلك اندلعت فتنة طائفية أخرى في مدينة منفلوط بأسيوط، وارتكبت أحداث شغب من شباب رغب في إقامة المحمل الذي كان يقام سنويا صبيحة عيد الفطر ثم ألغاه المحافظ. في حديث مع مجلة المصور الصادرة يوم ١١ مايو ١٩٩٠ أعلن اللواء محمد عبد الحليم موسى وزير الداخلية أن الجماعات المتطرفة شرعوا أن أي سيدة مباحة لأي إنسان من جماعتهم الدينية ما دامت ليست منضمة للجماعات!!..

الفصل الثاني

الحجاب في التاريخ

كان الآشوريون (في العراق) أول من فرض الخمار على النساء في التاريخ القديم (قبل الميلاد)، وكانوا قوما يتسمون بالغلظة والقسوة ويعاملون نساءهم بجفاء وخشونة، وقد شنوا حروبا عديدة على جيرانهم كانت غالبا ما تكلل بالانتصار واسترقاق أعداد هائلة من النساء والرجال، وكان المنتصرون يسخرون الرجال المهزومين لخدمتهم، ويستبيحون نساءهم لمتعتهم الشخصية، لذلك كان من الضروري تمييز الحرائر عن الأرقاء. وفي إحدى اللوحات الطينية التي عثر عليها المنقبون أخيرا في مدينة آشور القديمة أحكام خاصة بحجاب النساء جاء في مقدمتها:

«لا زوجات الرجال ولا الأرامل ولا النساء الآشوريات اللاتي يخرجن إلى الطريق يمكنهن ترك رؤوسهن مكشوفة. بنات الرجل سواء (ارتدين) شالا أم جلبابا أم عباءة، لا ينبغي لهن ترك رؤوسهن مكشوفة. السرية التي تخرج إلى الطريق مع سيدتها يجب أن تحجب نفسها. العاهر المقدسة التي تزوجها

رجل يجب أن تحجب نفسها في الطريق، أما التي لم يتزوجها رجل يجب أن تترك رأسها مكشوفاً في الطريق ويجب ألا تحجب نفسها، المومس يجب ألا تحجب نفسها، ويجب أن يكون رأسها مكشوفاً»[1].

قد وصل الحرص على التفرقة بين الحرائر والإماء حد توقيع عقوبات قاسية على من يرى أَمَة أو عاهرا محجبة في الطريق ولا يقوم بتقديمها إلى القصر لتلقى جزاءها، وذلك بأن يخلع عنه ثوبه ويجلد خمسين جلدة وتثقب أذناه ويمرر بينهما خيط يعقد خلف ظهره، ويعمل من أجل الملك شهراً كاملا. أما المومس أو الأمة التي تتنقب في الطريق فتجلد خمسين جلدة ويصب القار على رأسها!!

وفي لوحة أخرى ينص القانون على مراسم يجب اتباعها إذا تزوج رجل من سريته وجعلها زوجة يقول الحكم: إذا رغب رجل في أن يحجب سريته فسوف يحضر خمسة أو ستة من جيرانه، ويحجِّبها في حضورهم قائلا «إنها زوجتي» ومن ثم تصبح زوجته، وإلا فستظل سريته[2]..

وكان قدماء المصريين يؤمنون بأن الشعر هو مظهر القوة عند الإنسان ولذا كان الكهنة يحلقون شعور رؤوسهم كذلك كان الرجال والنساء يقتدون بهم، وكانت المرأة المصرية ترتدي

---

[1] قصة السفور والنقاب واختلاط الجنسين عند العرب. د. محمود سلام زناتي.

[2] قصة السفور والنقاب واختلاط الجنسين عند العرب. د. محمود سلام زناتي. دار البستاني للنشر والتوزيع. القاهرة ٢٠٠٢ ص: ٧٠.

الباروكة كغطاء للرأس وللزينة، وكانت النساء اليهوديات يقلدن سيداتهن في ذلك، ثم أصبح البرقع (الخمار) مفروضا على اليهوديات وقد ذُكر في أكثر من موضع في العهد القديم (التوراة):

«ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا فقال العبد هو سيدي، فأخذت البرقع وتغطت»[1].

وفي المسيحية ذكر غطاء الرأس في العهد الجديد (الإنجيل):

«وكل امرأة تصلي أو تتنبأ[2] وليس على رأسها غطاء، تجلب العار على رأسها، لأن كشف الغطاء كحلق الشعر تماما. فإذا كانت المرأة لا تغطي رأسها، فليقص شعرها»[3].

«لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها (علامة الخضوع) من أجل الملائكة»[4].

«فاحكموا إذن بأنفسكم: أمن اللائق أن تصلي المرأة إلى الله وهي مكشوفة الرأس؟ أما تعلمكم الطبيعة نفسها أن إرخاء الرجل شعره عار عليه، في حين أن إرخاء المرأة شعرها مفخرة لها، لأن الشعر أعطي لها بمثابة حجاب»[5].

---

[1] سفر التكوين الإصحاح ٢٤ من العهد القديم «التوراة».

[2] تفسر وتستخرج المعاني.

[3] العهد الجديد: سفر كورنثوس الأول إصحاح ١١ الآية ٥، ٦.

[4] سفر كورنثوس الإصحاح ١٠/١١.

[5] كورنثوس الأولى ١٣: ١١ حتى ١٥.

وما زالت النساء اليهوديات ملتزمات بتغطية رؤوسهن إلى اليوم، وأغلب المتدينات منهن يرتدين «الباروكة» عوضا عن الحجاب القديم، والتي يرين أنها تؤدي نفس الغرض. أما المسيحيات فقد تخلصت الأغلبية منه، وإن وضعته بعضهن داخل الكنائس أحيانا.

وعندما سيطر الفرس على بلاد ما بين النهرين اقتبسوا تلك العادة من الآشوريين وانتقلت منهم إلى بلاد الشام وبعض المدن العربية شمال جزيرة العرب قبل الإسلام[1]. بعد ذلك انتشر الخمار أو البرقع بين نساء بيزنطة وفارس وطروادة وإسبرطة غيرها من الممالك والحضارات القديمة. وعندما فتح المسلمون بلاد فارس (إيران حاليا)، وجدوا النساء معزولات عن الرجال داخل «الحريم»، ووجدوا الحرائر من النساء يرفضن الظهور أمام الرجال، فأعجبتهم الفكرة واقتبسوها وأطلقوا على معتقل النساء (الحريم)، وبدأوا يرغمون نساءهم على الاقتداء بالفارسيات، وغزا الحجاب قصور الخلفاء العباسيين في بغداد ثم بقية الناس وأغلبهم كانوا فارسيي الأصل، وانتشر من بغداد إلى باقي المدن الإسلامية، ورغم ذلك لم يعترف به الخوارج.

وفي أوروبا اتسم التاريخ القديم بصراعات مسلحة لا تنتهي بين القبائل والشعوب الأوروبية القديمة، وقد خلد شعراؤهم بعض أحداثها في ما يسمى بالملاحم، مثل الإلياذة والأوديسة،

---

[1] قصة السفور والنقاب واختلاط الجنسين عند العرب. د. محمود سلام زناتي. دار البستاني للنشر والتوزيع. القاهرة ٢٠٠٢.

اللتين تعودان إلى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، وفيهما يصف الشاعر اليوناني القديم هومر (حوالي ٨٥٠ ق.م) حربا شنها اليونانيون القدماء على مدينة طروادة، الواقعة على شاطئ آسيا الصغرى (في تركيا الآن). اندلعت الحرب بسبب امرأة! هي هيلين زوجة مينيلاوس شقيق أجاممنون ملك ميسينيا، التي اختطفها باريس ابن برايام ملك طروادة[1].

ومعروف أن الملاحم خليط من التاريخ والأدب والحكمة، وصورة للمجتمع القديم، الذي كان من الممكن أن تندلع فيه الحرب وتسقط مملكة (طروادة) بسبب امرأة. وقد فرض اليونانيون، على نسائهم الاحتجاب والنقاب منذ القرن الخامس قبل الميلاد. وكانت نساء طيبة (اليونانية) ينتقبن فلا يُرى من وجوههن سوى العيون. وكان بعض الأزواج لا يكتفي بما كانت تفرضه التقاليد من قيود على حرية المرأة فكانوا يضعون أختامهم على بواب دورهم إذا غابوا عن البيت. وقد اتسم المجتمع اليوناني القديم بتقليل شأن المرأة وازدرائها والحض على تجنبها، وساد هذا الفكر في نظريات فلاسفة اليونان القدماء وأقوالهم أمثال أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وعن هؤلاء تُنقل أغلب العبارات التي تزدري المرأة وتتحدث عن نقائصها وتدعو إلى عدم الثقة بها والابتعاد عنها وحبسها داخل دارها..الخ، وقد انتقل هذا الموقف منهم إلى العلماء المسلمين

---

[1] خلدت السينما العالمية تلك الحرب في عدة أفلام منها فيلم: «نساء طروادة» بطولة كاثرين هيبورن.

الذين درسوا فلسفة اليونان وعلومهم، وأول هؤلاء عبد الله ابن المقفع (الفارسي) الذي كان أول من دعا إلى حجاب المرأة في العصر العباسي ونشر بين رجال عصره آراء اليونانيين فيها.

كان الخمار والجلباب هما الزي العملي لنساء الزمن القديم لأسباب جغرافية واجتماعية واقتصادية. وفي شبه الجزيرة العربية، قبل عصر الرسالة كانت بعض النساء العربيات يرتدين البراقع ويتنقبن وقد ذكر ذلك في كثير من الأشعار القديمة، وعندما كان البدو يعيشون في خيام وغرف بلا أبواب، في البوادي، قبل أن تتبدل الحياة إلى مدن وقرى بها بيوت وأبنية كان من الطبيعي أن يتحصن الإنسان داخل ملابسه، فكان الرجال يرتدون أغطية الرأس مثل القاووق واللبادة والقالباق والقلنسوة، ومازال بعضها سائداً حتى اليوم في بلاد المسلمين (كالعمامة والغُترة والكوفية والعقال والطاقية والطربوش.. الخ).

وكانت النساء تغطين رؤوسهن بالخمار ليحمين أنفسهن من تقلبات الجو في الصحراء؛ كالرياح والأتربة والأمطار وأشعة شمس الصيف الحارقة إلا أن هذا لم يمنعهن من الاختلاط بالرجال والمشاركة في الحياة العامة وكن يشاركن في الحروب والمعارك وفي أوقات السلم كن يفدن إلى أسواق الأدب، مثل سوق عكاظ، فيستمعن إلى الأشعار والخطب وينشدن أشعارهن ويتبادلن الحديث مع الشعراء.. الخ وقد استمر هذا الوضع بعد الإسلام، فعندما ذهبت النساء إلى الرسول ليبايعنه لم يشترط عليهن حجابا ولا نقابا، وكانت النساء العربيات يزرن الرسول

صلى الله عليه وسلم ويستفتينه في شتى الأمور وكان يزورهن في بيوتهن فيستقبلنه ومن معه ويكرمن وفادته، وكن يذهبن إلى المسجد للاستماع إلى خطبه وخطب الصحابة وللصلاة في أوقاتها حتى صلاة الفجر، وكان صوتهن يرتفع فيلقين الأسئلة على الرسول الكريم ويتلقين العلم على يديه ويجادلنه أحيانا (سورة المجادلة) ويعترضن على ما يقوله الصحابة، كما حدث مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اعترف بأنه أخطأ وأصابت امرأة. وفي غزوات الرسول ثم بعد ذلك في فتوحات المسلمين شاركت النساء بالتمريض وبالقتال بالسيف ورمى القوس وقد سميت المعركة بين علي رضي الله عنه ورجال معاوية، طلحة والزبير، بوقعة الجمل لأن عائشة رضي الله عنها حضرتها في الكوفة، وكانت تحرض الفريق المناهض لعلي وهي جالسة ترقب المعركة في هودج على جمل. وقد ظلت النساء المسلمات يخرجن مع رجالهن إلى ساحة القتال ويشاركن في الحروب حتى انهزمت الدولة الأموية، وبدأت الدولة العباسية التي ساد فيها الفرس وغلبت عاداتهم وأعرافهم على المجتمع العربي في بغداد، ومنه إلى بقية المدن العربية التي اجتاحها الفرس، وأسبغ فقهاؤهم على الحجاب الصبغة الدينية واعتبروه نظاما إسلاميا[1]. وكان أبو مسلم الخراساني (الفارسي) قائد جيش بني العباس أول من منع خروج النساء مع الجند.

---

[1] قصة السفور والنقاب. د. محمود سلام زناتي ص: ٧٤.

وفي العصر العباسي ازداد وضع الأحاديث (اختلاقها ونسبتها زورا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصحابة). وأغلب الأحاديث التي مازال الفقهاء يستدلون بها على فرض الحجاب وإخضاع الزوجة للزوج خضوعا تاما موضوعة أو ضعيفة أو أحادية، وضعت (زيفت) عن الرسول (ص) أو عن عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب والحسن رضى الله عنهم، وغيرهم وأغلبها من وضع (تأليف) رجال نسبوها إليهم زورا بغرض إكسابهم المهابة والاحترام.

مما سبق نرى أن الحجاب والنقاب والفصل بين الجنسين (الحريم) عادات قديمة سنتها مجتمعات أخرى، ولم تكن خاصة بالعرب أو المسلمين وحدهم لكي تصبح علما عليهم وإشارة إلى هويتهم يتشبثون بها لتميزهم عن غيرهم إلى آخر التاريخ. والجاحظ[1]، الذي عاش في نفس عصر ابن المقفع واطلع على علوم اليونان وأخذ كثيرا من أفكارهم ونظرياتهم، لم ينجرف وراء تيار ازدراء المرأة الذي قاده ابن المقفع، ودافع عن المرأة متأثرا بثقافته الإسلامية، وكتب يقول في إحدى رسائله إن السفور كان سائدا في زمن الرسالة بين نساء النبي ونساء الصحابة و «ان الله تعالى خلق من المرأة ولدا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ذكرا من غير أنثى. فخص بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل، كما خلق المسيح في بطن مريم من غير ذكر»[2].

---

[1] الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. كتب نحو خمسين ومائة من الكتب المختلفة البحوث، من أشهرها «الحيوان» و«البخلاء» و«البيان والتبيين» وولد بالبصرة في سنة ١٥٩ هـ ورحل إلى بغداد وتوفي في سنة ٢٥٥هـ.

[2] «القيان» للجاحظ.

الفصل الثالث

الحجاب في القرآن الكريم

بدأ نزول القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر من شهر رمضان سنة ٦١٠ ميلادية، وكان ينزل على النبي طوال بعثته منجما؛ أي آيات آيات، على حسب الحوادث والمناسبات التي أحاطت بتاريخ الدعوة الإسلامية، وبعض السور نزلت كاملة..

وقد اتفق الفقهاء في تفسيره على أن تكون «العبرة بخصوص السبب»، أي ألا يقتصر فهم الآيات القرآنية على تفسير عموم اللفظ، بل لا بد من الرجوع إلى أسباب تنزيلها والظروف التاريخية التي أوحيت فيها، لأن الجهل بهذه الأسباب كثيرا ما يوقع في الخطأ في فهم الآية، فقد تدل ألفاظ الآية على أن الحكم الذي تتضمنه حكم عام في حين أننا لو علمنا سبب نزولها لأدركنا أنه حكم خاص متصل بقصة معينة أو بشخص معين. وعلى سبيل المثال لما نزلت الآية {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} سورة المائدة، ٩٣ ظن بعض الصحابة أن الخمر أبيحت لهم، ولكن الرسول

عليه الصلاة والسلام بين لهم أن الآية نزلت مرتبطة بسبب معين، وذلك أنه لما حُرمت الخمر قال بعض الصحابة كيف بمن قتلوا في سبيل الله أو ماتوا وكانوا يشربون الخمر؟ فنزلت هذه الآية متضمنة حكما خاصا بهؤلاء الصحابة الذين كانوا يشربون الخمر وماتوا قبل تحريمها[1]، لهذا حرم العلماء تفسير القرآن الكريم على من يجهل أسباب نزول آياته.

وقد رتبت الآيات في القرآن الكريم بإشارة من النبي عليه السلام وبتوقيف منه، ليس على حسب تاريخ نزولها وإنما على حسب الموضوعات والأفكار التي تتناولها كل سورة. وقد يذكر المفسرون أكثر من سبب لنزول آية وتتعدد تفسيراتهم للآية الواحدة أو تتعارض مع بعضها البعض. وقد يضيف البعض تحليلا لغويا لكل عبارة في القرآن الكريم كما فعل الطبري على سبيل المثال.

وفي القرآن الكريم يعتبر اللباس من النعم التي أسبغها الله تعالى على البشر ومن الزينة التي حرم منعها عليهم ومن الطيبات المحللات لهم:

«والله جعل لكم مما خلق ظلالا، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تَسلمون قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»، كذلك حدد الغرض من اللباس وهو إلى جانب الوقاية من تقلبات الطبيعة إخفاء السوأة (العورة) «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير» ـ الأعراف ٢٦.

---

[1] في تاريخ القرآن الكريم محاضرات الدكتور يوسف خليف ١٩٧٥/ ١٩٧٦.

وقد ذُكر لباس المرأة في ثلاث آيات في القرآن الكريم هي:

«يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما». سورة الأحزاب الآية ٥٩.

«قل للمؤمنين يغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجَهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يَغضُضن من أبصارهن ويحفظن فروجَهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن.. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» سورة النور الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١.

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق. وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن. وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما» سورة الأحزاب الآية ٥٣.

ويرى المفسرون أن آيات الحجاب والخمار والجلباب الخاصة باللباس من المتشابهات، أي التي اختلف المفسرون في فهم ألفاظها. وقد نزلت في السنة الخامسة لهجرة الرسول وصحبه المسلمين إلى المدينة، أو السادسة، وكانت هذه السنوات من أصعب سنوات الدعوة، فبعد أن انتصر المسلمون على الوثنيين في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة (٦٢٤م) لحقت

بهم الهزيمة في أحد (سنة ٦٢٥م). وعاد المكيون متحالفين مع قبائل أخرى (الأحزاب) ليحاصروا المدينة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بحفر خندق حولها لحمايتها. وبينما المسلمون يعيشون تلك الأزمة، كان المنافقون يثرثرون بالشائعات ويشيعون جوا من الشكوك والبلبلة بين الناس، حتى وصل بهم الافتراء إلى اتهام عائشة رضي الله عنها بحديث إفك في السنة السادسة الهجرية أثناء غزوة بني المصطلق.

وجاء في كتب التفسير أن سبب نزول آيتي الجلباب والخمار أن بعض شبان الأنصار من المستهترين والمنافقين كانوا يتعرضون للنساء، ويهتكون أعراضهن ويحرضونهن على ارتكاب المعاصي، فشكت النساء إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآيات، وأُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ زوجاته ونساء وبنات المسلمين بأن يسحبن الخُمُر، التي اعتدن أن يرتدينها، على جيوبهن (أي فتحات صدورهن)، وهذا تفسيرهم لعبارة «يضربن بخمرهن على جيوبهن»، وأن يوسعن جلابيبهن ويجعلنها سابغة فضفاضة، و هذا تفسير عبارة «يدنين عليهن من جلابيبهن».

جاء في تفسير القرطبي لآية الجلباب[1]:

«وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية.. تبرز (تخرج من خيمتها) للحاجة فيتعرض لها بعض الفجار يظن أنها

---

[1] تفسير القرطبي، كتاب الشعب صفحة ٥٣٢٤.

أَمَة (جارية)، فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ونزلت الآية بسبب ذلك «لذلك» أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج لقضاء حوائجهن، وكن يتبرزن في الصحراء قبل أن تتخذ الكُنف (دورات المياه) فيقع الفرق بينهن وبين الإماء، فتُعرف الحرائر بسترهن، فيكف عن معارضتهن من كان عزبا أو شابا».

أما آية الحجاب فقد أجمع المفسرون على خصوصيتها بنساء النبي، صلى الله عليه وسلم، دون إمائه وبناته والصحابيات. والآية لا علاقة لها باللباس أو الثياب، بل هي خاصة بآداب زيارة المسلمين لبيت الرسول صلى الله عليه وسلم، ومراسم مخاطبتهم لزوجاته داخل البيت، إذا اقتضت الضرورة، فيتم ذلك من وراء حجاب، أي ساتر، أو ستار، يخفي شخوصهن، رضى الله عنهن، وشخوص من يتحدث إليهن. فلفظ الحجاب في القرآن الكريم معناه حاجز أو ستارة، وليس معناه زي أو لبس المرأة[1].

فلنتذكر السياق الاجتماعي الذي نزلت فيه تلك الآيات.. كان رجال مكة قوم إغارة وتجارة أما المدنيون فكانوا قوم زراعة واستقرار مدني. وبعدما هاجر الرسول إلى المدينة، أقلق الرجال المكيون (المهاجرون) حرية نساء المدينة (من الأنصار) في التفكير

---

[1] انظر سورة الأعراف الآية ٤٦، وسورة ص الآية ٣٢، وسورة فصلت الآية ٥، وسورة الشورى الآية ٥١، وسورة الإسراء الآية ٤٥، وسورة مريم الآية ١٧.

والعمل، وعبر عمر بن الخطاب عن ذلك بقوله: «كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذ هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفقت نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار. «وكان النبي عليه السلام يسكن في تسعة غرف على الجانب الأيسر من المسجد النبوي، خمس من الجريد المغطى بالتراب وأربع من الحجر وكان لغرفة عائشة ممر يصلها مباشرة بالجامع[1]، ولم يكن هناك فاصل بين الخاص (بيت النبي) والعام (الجامع الذي تتم فيه لقاءات المسلمين وتقام فيه الصلوات)، لدرجة أن الرسول (ص) كان يسمع ما يجري في المسجد من أحاديث وهو في غرفة عائشة، وكان الرجال والنساء الباحثين عن المعرفة يتزاحمون حول الرسول وهو داخل إلى بيته، بعد أن يرهقوه بأسئلتهم، وكانوا يلاحقونه وينادونه من وراء الحجرات حتى نزلت الآية {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا والله غفور رحيم}. ولم يكن أغلب البدو في ذلك الوقت يحسنون أدب المخاطبة ولا التعبير في الكلام، خاصة إذا ما تعلق الأمر بخلافات بينهم، على الرغم من إيمانهم وشغفهم بالدين الجديد، فكانوا يتحدثون جميعا إلى الرسول في وقت واحد ويرفعون أصواتهم عليه، فنزلت الآية الكريمة {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون}.

---

[1] طبقات ابن سعد.

وعن سبب نزول آية الحجاب: «عن أنس بن مالك رضي الله عنه.. كنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما أنزل في مبتني (زواج) رسول الله (ص) بزينب بنت جحش. أصبح النبي (ص) بها عروسا، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقي رهط منهم عند النبي (ص) فأطالوا المكث، فقام النبي (ص) فخرج وخرجت معه، ومشى النبي (ص) ومشيت، حتى جاء عتبة حجرة عائشة، ثم ظن أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي (ص) ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي بيني وبينه بالستر وأنزل الحجاب» رواه البخاري ومسلم.

ومفاد الحديث أن النبي دعا جماعة المسلمين إلى حفل زفافه إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها، وحضروا جميعا وأكلوا وذهبوا إلا بعض الثقلاء تجاوزوا حدود الضيافة، وظلوا جالسين في غرفة العروس يثرثرون مما ضايق الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الرغم مما هو معروف عنه بضبط النفس والسماحة والصبر. وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام من غرفة السيدة زينب ومر على زوجاته، ثم عاد ليجد تلك المجموعة مازالت في مكانها لم تبرحه ومازالت تثرثر في أحاديث فارغة، ويقول أنس بن مالك إنه لما عاد ووجدهم قدم رِجلا داخل الغرفة وأبقى الأخرى خارجها، وفى تلك اللحظة نزلت آية الحجاب التي منعت العرب من زيارة بيوت أمهات المؤمنين بدون إذن، ونظمت أسلوب التحدث إليهن ليكون من وراء حجاب أي ساتر (ستارة).

وحديث أنس بن مالك يدلنا على أن الحجاب (الستار) ضرب بين رجلين هما الرسول (ص) وأنس، وليس بين رجل وامرأة.

بعد نزول هذه الآيات أصبح لزاما على المسلمين أن يعاملوا زوجات النبي معاملة مميزة، وعرفوا أنهن لسن كبقية النساء، وعرفت زوجات الرسول ذلك أيضا وأنهن قد أُمرن بأن يحتجبن عن عامة الناس، ولا يغادرن بيوتهن (إلا للضرورة) «وقرن في بيوتكن»[1]، وصار لزاما على الرجال المسلمين أن يكفوا عن التفكير في الزواج من أي منهن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان بعض الأعراب قد تحدثوا علنا في ذلك أمام النبي صلى الله عليه وسلم، دون خجل ودون أن يشعروا أنهم يأذون مشاعره «ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعد أبدا» سورة الأحزاب (٥٣). وأدركت زوجات النبي أن الاقتران برسول الله وخاتم الأنبياء ليس كالزواج من أي رجل، وأن الله تعالى يضاعف عذاب من قد تأتي منهن بفاحشة، وكذلك يضاعف أجرهن على العمل الصالح «يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل

---

[1] رأى بعض الفقهاء أن كلمة قرن (بكسر القاف) من الوقار والمقصود بها ليس القرار في البيت أي الحبس في المنزل، بل الاحترام وعدم التبذل في الملبس أو الكلام أو المظهر: خليل عبد الكريم في كتابه «مفاهيم خائطة ألصقوها بالإسلام» ص ٦٨.

صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما «الأحزاب ٣١،٣٠. وبعد وفاة الرسول رُفض الإذن لهن بالمشاركة في الجهاد، مع الإذن لعامة النساء» وهو من الخصائص النبوية التي شاء الله سبحانه وتعالى أن يميز بها رسوله وأهل بيته عن سائر الناس، كرامة له وتعظيما لمقامه، وارتفاعا بآل البيت عن كل شبهة، ومن ثم فالاقتداء بهن غير مطلوب ويعني تطاولا محظورا إلى مقام النبوة»[1].

إذن فالنساء المسلمات لسن مطالبات بالاقتداء بنساء النبي (ص) والدليل على ذلك موجود في نفس السورة: {يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى. وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا} الأحزاب٣٢-٣٤.

وقال بعض المفسرين[2]: فلما نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية قالت نساء المسلمين فما نزل فينا شيء، فنزلت الآية:

---

[1] «تحرير المرأة في عصر الرسالة» عبد الحليم أبو شقة ج٣ صفحة ٦٧.

[2] النسفي والبيضاوي.

{إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات الذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}.

هذه هي شروط الإيمان الصحيح، التي تساوي بين النساء والرجال في كل شيء.

ورغم أن المسلمات، وغير المسلمات، كن يرتدين الخمار والجلباب، وأحيانا النقاب منذ زمن طويل، فقد اختلف المفسرون حول معاني وشروط وأشكال اللباس الذي يحمي جسد المرأة.

ففي معنى الجلباب قال البعض: «الجلباب كسرداب القميص» وقال آخرون: «رداء تغطي به المرأة ثيابها، أو ثوب واسع دون الملحفة، وهو في كل الأحوال رداء كانت ترتديه النساء بالليل لستر أجسادهن». وانشغلوا قرون طويلة بماذا يظهر وماذا يختفي من بدن الحرة وبدن الأمة، وانقسموا حول المقصود بعبارة «يدنين عليهن من جلابيبهن» فذهب البعض (عن بن عباس) أن نساء المسلمين أُمرن بأن يغطين رؤوسهن، ووجوههن بالجلباب إلا عينا واحدة ليُعلم أنهن حرائر!! ورأى البعض الآخر أنهن يجب أن يغطين جباههن. وقال النسفي: «كانت جيوبهن (فتحة الصدر) واسعة تبدو منها صدورهن، وكن يسدلن الخمر من ورائهن، فتبقى مكشوفة فأمرن أن يسدلنها من قدامهن».

كذلك اختلف الفقهاء في تفسير كلمة الجيوب: {وأن يضربن بخمرهن على جيوبهن}، فقال البعض إن موضعها النحر أي أعلى الصدر، وقال آخرون: بل الصدر لا النحر وقد كنى عن الصدور بالجيوب لأنها تُلبس عليها. واختلفوا وتناقضوا حول ماهية الزينة الظاهرة التي يمكن أن تبديها المرأة للغرباء (وألا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها). فقال بعضهم إنها الوجه والكفين، وأضاف ابن مسعود: والثياب، وقال آخرون (عن بن عباس) إنها الكحل والسوار والخضاب (الحناء) إلى نصف الذراعين والقرط والخاتم[1]!

وفي رواية أخرى تغطي شعرها وصدرها وترائبها وسوالفها! وهو قول يناقض القول الأول فهو لا يرغم المرأة على تغطية الوجه والكفين، وقيل (عن بن عباس أيضا): إن الزينة الظاهرة هي الكحل والخاتم والخدان والخضاب في الكف. وقال النسفي إن مواضع الزينة الرأس والأذن والعنق والصدر والعضدان والذراع والساق والقرط والقلادة والوشاح والدملج والأسوار والخلخال وأفتى بعض الفقهاء، بأن الإماء المؤمنات لهن (وعليهن) أيضا أن يكشفن عن رؤوسهن وبعض أطرافهن (مثل قدر من الذراع وقدر من أسفل الساق)، أثناء العمل إعمالا لقاعدة «المشقة تجلب التيسير»، أو قاعدة «الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات»، بل أن البعض الآخر أفتى بجواز كشف الذراع أثناء الصلاة لأنها من الزينة الظاهرة (كالسوار). ورغم أن الآيات لا تذكر شيئا عن الشعر فقد قالوا

---

[1] أورد ابن جرير الطبري (٣١٥ هـ) حديثاً عن النبي في نصف الذراعين.

بأن المرأة عليها أن تغطي شعرها لأنه مصدر الفتنة فيها، بينما من المسموح لها أن تضع الكحل لتظهر سحر عينيها والخضاب (أي الماكياج والمانيكير بلغة العصر)، وأن تتزين بكل أنواع الإكسسوارات من أقراط وأساور وخواتم.. الخ! وقد زعموا أنه تعالى لعن السلتاء التي لا تخضب بالحناء (والمرهاء) التي لا تكتحل)!! وتلك هي الزينة الظاهرة في رأى المفسرين القدامى ولا دليل عليها في كتاب الله!..

تلك خلاصة ما اجتهد إليه المفسرون القدامى في تفسير الآيات الكريمة، وأغلبها يعود إلى رأى المفسر شخصيا وليس إلى نص آية قرآنية أو حديث صحيح. وقد اجمعوا على أن الغرض من الآيات لم يكن تعبديا أو دينيا، وإنما اجتماعي صرف؛ وهو حماية النساء المسلمات الحرائر من المستهترين من شباب المدينة المنافقين والصعاليك، الذين يلحقون بهن الأذى، في الوقت الذي يحتاج فيه النبي إلى تنظيم صفوف المسلمين ومواجهة الأعداء، إلى جانب تنظيم شؤون الدولة والتمهيد لاستقرارها بالقوانين والمؤسسات الشرعية التي تحمي الأفراد وتحرس الأمن وتعاقب الخارجين على القوانين. ورغم أن مذهب جمهور العلماء أن الأمر بشيء لا يدل على وجوب هذا الشيء، ولأن قوله تعالى «ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» مما يدل على أن ذلك لا يدفع الفساد حتما، وإنما هو أدنى إلى دفعه، ومثل هذا يكون مندوبا لا واجبا[1].

---

[1] الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه «في ميدان الاجتهاد» ص ٤٥ نقلاً عن جمال البنا.

لقد اتخذ بعض الفقهاء تلك الآيات ذريعة للإفتاء بالحجر على النساء، حرائر وإماء، وحرمانهن من أبسط الحقوق الإنسانية، وعزلهن داخل جزء خاص في البيوت (الحريم) لا يخرجن منه إلا مرتين، مرة إلى بيت الزوجية ومرة إلى القبر!.

وفتاوى قهر المرأة التي تفيض بها مئات الكتب القديمة تتعارض تماما مع الموقف الصحيح للإسلام من المرأة، والذي تشهد عليه العديد من الآيات القرآنية الكريمة، فكيف يكون تغطية بدن المرأة كلها، إلا عين واحدة، اتقاء للفتنة وحتى لا تشيع الفوضى في المدينة، بينما في القرآن الكريم آية تأمر المسلمين، رجالا ونساءً، بأن يغضوا من أبصارهم، و«أن يحفظوا فروجهم». فالرجال مأمورون بغض البصر «أي بعدم الحملقة في النساء»، وألا يقربوا الفاحشة، فالله يرقبهم، ما ظهر منهم وما بطن؛ وخير لهم أن يلتزموا بأمره الواضح الصريح، وأن يتقوا الله في النساء المسلمات «ذلك أذكى لهم. أن الله خبير بما يصنعون».

كذلك أُمرت النساء بغض البصر عن الرجال، و«أن يحفظن فروجهن»، كما نصحن بالتحشم في الملبس وفي السلوك، وألا يبالغن في إبداء زينتهن (الظاهرة)، حتى يتقين شر ضعاف النفوس، من غير الأقارب، الذين لم يتغلغل الإيمان إلى أعماقهم بحيث يحميهم من شر قلوبهم المريضة (المحرضة على الرذائل).

كان الغرض من الآية الكريمة تيسير خروج المرأة (وسط الصحراء وفي الظلام) لقضاء حاجتها، وتسهيل حركتها، حتى لا يتعرض لها أحد بالأذية، لكن الفقهاء القدامى أفتوا أن تحتجب نساء المسلمين في كل مكان وحتى آخر الزمان. ويلي ذلك الإجراء الوقائي الذي نصح به القرآن تحذير شديد للرجال المنافقين والمستهترين الذين يشيعون الفوضى في المدينة، إذا لم يرتدعوا ولم يتوقفوا عن ملاحقة النساء وإيذائهن، حلت عليهم لعنة الله، ويحق للحاكم أن ينفذ عليهم عقابا صارما، يصل إلى إلقاء القبض عليهم ونفيهم من المدينة أو قتلهم، وهذا يتضح من الآيات ٦٠، ٦١ في نفس السورة (الأحزاب):

{لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا. ملعونين أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلا}.

لقد عسر المفسرون القدامى على النساء من حيث أراد الله تعالى أن ييسر عليهن، وقيدوهن من حيث أراد سبحانه وتعالى أن يحررهن. وقد غالوا في ذلك حتى وصل بعض الحنابلة بعد منتصف القرن السابع الهجري إلى حد فرض ستر جميع بدن المرأة بما في ذلك الوجه والكفين والقدمين، وأن كل شيء منها عورة حتى ظفرها!! ووصل الحنابلة إلى حد القول بأنه إذا انكشف من المرأة شيء سوى وجهها أعادت الصلاة[1].

---

[1] أبو شقة ج٤. ١٨٦.

أما أبو حنيفة فرأى أن قدمي المرأة ليستا عورة عملا بمبدأ «الابتلاء بالإبداء» لأنها تبتلى بإبداء القدم إذا مشت حافية أو منتعلة فربما لا تجد الخف «على أن الاشتهاء لا يحصل بالنظر إلى القدم كما يحصل بالنظر إلى الوجه، فإذا لم يكن الوجه عورة مع كثرة الاشتهاء فالقدم أولى»[1].

وواقع الأمر أن الآيات الكريمة لم تذكر أعضاء المرأة التي يجب أن تظهر أو تختفي ولم تصرح بزي محدد يفرض على المؤمنات في كل زمان ومكان بل تركت ذلك لكل عصر، تختار فيه المؤمنات وفق إرادتهن الحرة ما يحقق لهن الاحتشام وعدم التبذل واتقاء الفتنة. ويرى بعض المفسرين المحدثين أن «خلاصة ما تتضمنه الآية أنها تسمح بإظهار قدر من الزينة مع الأمر بستر فتحة الصدر، وتنهي النساء عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن. وفي الوقت نفسه سمحت الآيات بإبداء الزينة لاثني عشر فئة من أهل المرأة منها (ما ملكت أيمانهن) من رجال ونساء»[2].

وقد اختارت النساء العاملات في وقتنا الراهن كلباس محتشم ارتداء البدل أي البنطلونات تحت الجاكيتات الطويلة نوعا التي تتسدل على البدن مقتربة من الساق، فهل خالفن في ذلك الشرع لأن البدلة والجاكيت والبنطلونات لم تذكر في آية أو حديث شريف!!.

---

[1] أبو شقة ص ٧٤.

[2] جمال البنا في «المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد الفقهاء» ص ٣٠.

وهكذا تناقضت تفسيرات المفسرين القدامى، وتجاوزت صريح الآيات التي تأمر بغض البصر وعدم المبالغة في الزينة وتغطية الجيوب[1]، والقاعدة الفقهية التي أرسوها أن لا حجة مع التناقض! وليس غريبا عليهم أن يختلفوا ويتناقضوا في تلك الآيات، فقد فعلوا ذلك في أغلب الأمور الأخرى وانقلبوا إلى مذاهب وشيع وفرق حتى روي عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: «فيا عجبا ومالي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر ما أنكروا».

إن الإسلام لم يبتدئ، الخمار ولم يبتكر الجلباب وإنما نظم عملية ارتداء المسلمة لهما لكي يحميها من الإيذاء، في وقت كان الناس قريبين عهد بالوثنية، لم تتعمق في نفوسهم التقوى والخوف من الله ومن حسابه يوم الدين، وقد غلبت فيهم، قبل الإسلام، أخلاق الجاهلية وانعدم في زمانهم العلم، وغابت السلطات التي تحمي المواطنين من بعضهم البعض كالقوانين والشرطة والمحاكم.. الخ. وقد فسر القدامى آيات الحجاب وفق مفاهيم عصورهم فأضافوا إليها ما لم يُذكر فيها مثل التفرقة بين النساء، ولا يوجد في الآيتين ما يدل على التفرقة بين الإماء والحرائر، بل الخطاب موجه لكل النساء: {قل لأزواجك وبناتك ونساء المسلمين}..

---

[1] الجيب: فتحة أو شق في الثوب يدخل منها الرأس.

وجاء في تفسير القرطبي أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان؛ فأنزل الله الآية:

{والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} الآية ٥٨ من سورة الأحزاب.

إن المسلمين بعد أن فرضوا الحجاب على نسائهم لم يعودوا يفرقون بين النساء الشريفات (الحرائر والمحصنات وربات الخدور) وبين الجواري اللائي أرغمن على العمل في بيوت المتعة: الحانات، أو في حريم الأمراء والأثرياء: القيان، وأصبحوا ينظرون بشك وريبة إلى كل النساء، ويتعاملون معهن كما لو كن جميعا عرضة للسقوط والانحراف، وغير مهيأات للتعفف وحماية أنفسهن من الزلل، وبدلا من أن يسنوا القوانين لتنظيم المجتمع الإسلامي وحمايته من المستهترين والمنافقين، وضعوا الأقفال على نسائهم وحرموهن من كل الحقوق التي منحها لهن الإسلام، وحبسوهن طوال أربعة عشر قرناً كاملة داخل الحريم الجاهلي.

الفصل الرابع

الحجاب في الحديث النبوي الشريف

«الحديث» هو كل ما حكي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير وقد جاء في القرآن الكريم {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} آل عمران ١٦٤، فالرسول مكلف بتبليغ الرسالة وسنة رسول الله تبين للناس أحكام ربهم في كل الأمور مفصلا ما أنزل إليهم من ربهم. وقد قضى النبي عليه السلام - بعد نزول الرسالة - ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنين في المدينة. وكان مجتمع المدينة يختلف كل الاختلاف عن مجتمع مكة. كان أهل مكة وقت نزول الدعوة عباد أصنام وكانوا قوما جفاة الطباع، غلاظ القلوب، ماديون، قاوموا الدعوة بعنف وحاولوا قتل الرسول حتى لا تنتشر دعوته وتقضي على زعامة قريش الدينية والسياسية والاقتصادية في الجزيرة العربية. أما المدينة فكان يسكنها أهل الكتاب من الأنصار الذين آمنوا بالإسلام ورحبوا به وبرسوله، واليهود الذين لجؤوا إليها هربا من اضطهاد الرومان، والنصارى الذين كانوا يردون إلى المدينة وفودا ليناقشوا النبي في أمور الدين الجديد.

ولم يفكر أحد من المسلمين خلال القرن الأول الهجري على امتداده في جمع الحديث أو الاستيثاق منه ولا في تدوينه وجمعه في كتاب موحد كما فعلوا بالقرآن الكريم[1].

والسبب أن الصحابة كانوا يكرهون كتابة الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن والتدبر والتذكر[2]، وكانوا إذا رأوا أحدا يدون الحديث أمروه بأن يمحوه، لما استقر في نفوسهم من نهي النبي عن ذلك. وقد نشأ (عن ذلك) أن استباح قوم لأنفسهم أن يزيفوا أحاديث وينسبوها زورا وبهتانا إلى رسول الله.. ولما فتحت الفتوح ودخل في الإسلام من لا يحصى كثرة من الأمم من فارسي ورومي وبربري ومصري وسوري، وكان منهم من لم يتجاوز الإيمان حناجرهم، كثر الوضع والتزييف كثرة مذهلة.

وأول من دون الحديث كان ابن شهاب الزهري (٥٢- ١٢٤هج)، وبعد وفاته كثر الجمع والتدوين ولكن كل تلك الكتب لم تصل إلينا، ثم كتب الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هج) كتابه «الموطأ» وقد ألفه على أبواب الفقه، أي تقسيم الكتاب إلى أبواب: باب في الصلاة وباب في الصيام وباب في الزكاة..الخ. ومن أشهر من جمع الأحاديث الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ -١٢٤ هج) في «مسند ابن حنبل»[3].

---

[1] الحديث الشريف رواية ودراية «الدكتور نعمان القاضي» المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧٥ ص ٢٥.

[2] الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين طبعة بولاق ج١ ص ٧٤.

[3] المسند كتاب يعتمد على الرواية الشفهية وإن كان ينقل عن السابقين أحياناً.

ثم جاءت الكتب الصحاح، وهي الكتب التي حاول أصحابها تخليص الحديث الصحيح من غيره وهي ستة كتب للبخاري ومسلم وابن ماجه وأبي داود والترمذي والنسائي. وقد اكتسب كتاب «البخاري» (١٩٤- ٢٥٦هج) شهرة ومكانة كبيرة في عصره مازالت إلى يومنا هذا. والبخاري فارسي الأصل، وقد بلغ كتابه حتى وقت متأخر منزلة مقدسة، وكان يُقرأ على الناس في المحافل كما يُقرأ القرآن الكريم في شهر رمضان أيام المماليك، كما كانت تقام احتفالات كبيرة عند ختام قراءته. ثم يلي البخاري «صحيح مسلم» (٢٠٦-٢٦١هج) وهو عربي الأصل ولكنه كان فارسي الموطن، والكتابان يعتبرهما المحدثون أصح كتب الحديث.

وقد كثرت كتب الأحاديث واتسعت الرواية وتضخمت لعدة أسباب منها اختلاف الحديث عن القرآن في صياغته التفصيلية التفسيرية الأمر الذي جعله أداة سهلة للاحتجاج، وفي حديث ابن عباس أن علي بن أبي طالب حين أرسله لمناقشة الخوارج وإقناعهم بحروراء قال له «لا تحتج عليهم بالقرآن فإنه حمال أوجه واحتج عليهم بالحديث». ويذهب الأستاذ احمد أمين إلى أن من أهم أسباب الوضع (الكذب في رواية الحديث النبوي) مغالاة الناس في الإقبال على العلم المتصل بالكتاب والسنة والتقليل من شأن فروع العلم الأخرى مما حمل الناس على أن يصبغوا الأمور صبغة دينية ليقبل الناس عليها فوجدوا الحديث الباب الوحيد المفتوح على مصراعيه، فكان أن وجدت في الحديث أحكام فقهية مصنوعة وحكمة هندية وفلسفة زرادشتية

ومواعظ إسرائيلية ونصرانية وغيرها. ويشير الحافظ الذهبي (ت عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) إلى أربعة آلاف محدث إسلامي مشكوك في رواياتهم ويضيف: «وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها».

ويذكر محمد بن سعيد أكثر من ٧٠٠ امرأة روين الأحاديث نقلا عن النبي أو عن الأنصار والمهاجرين، وكان الباحثون وأعمدة الإسلام ينقلون عن هؤلاء النساء، ومن المجمع عليه بين العلماء المسلمين أن السنة لا تفتئت على القرآن الكريم ولا تعارضه ولا يؤخذ منها إلا ما يوافقه نصا وروحا.

وفي مسألة الحجاب يُنسب إلى عائشة رضي الله عنها حديث يقول: «إن أسماء بنت أبي بكر دخلت على الرسول (ص) وعليها ثياب رقاق (شفافة) فقال لها: يا أسماء إن المرأة إذا ما بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى الوجه والكفين» ذكره أبو داوود[1]. (في أوائل القرن الثالث الهجري)، وقال عنه «وهذا مرسل[2]؛ خالد بن دريك لم يدرك عائشة». وفضلا عن ذلك لم يرد هذا الحديث في البخاري ولا مسلم ولا مسند بن حنبل ولا بقية الصحاح.

---

[1] هو سليمان بن الجارود بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ) وهو محدث عراقي مشهور تتلمذ على يد ابن حنبل وارتحل في طلب الحديث مطوفاً بالبلدان وقدم إلى بغداد مراراً ثم استقر بها حتى مات.

[2] الحديث المرسل هو الذي يسند إلى أحد التابعين وليس إلى الصحابي وقد ضعفه جمهور المحدثين ومن بينهم الشافعي وابن جنبل.

وهناك حديثان آخران يجيزان الكشف عن نصف الذراع: حديث قتادة لابن جرير الطبري: قال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يدها إلا إلى هنا، وقبض (ص) على نصف ذراعه. وحديث ابن جريج عن عائشة: قال (ص) إذا عركت المرأة - أي بلغت الحلم - لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها، وما دون هذا (وقبض على نصف ذراع نفسه)، وقد أخذ المالكية بهذه الأحاديث ورفضوا تضعيفها، إلا أنهم أوردوها كدليل على اعتبار الشعر ونصف الذراع ونصف الساق من العورات المخففة.

وثمة حديث ثالث عن ابن الأثير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لامرأة متنقبة جاءته تصيح: يا رسول الله النار النار.. فقال لها يا أمة الله أسفري فإن الأسفار من الإسلام والنقاب من الفجور[1].

والحديثان المنسوبان لعائشة رضي الله عنها من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في الأمور العقائدية، أي لا تعتبر فرضا دينيا لأن الفرض الديني هو ما جاء في حكم صريح قطعي لا تشابه فيه في القرآن الكريم أو في السنة المتواترة، كما أنهما يتناقضان فأحدهما يجيز كشف الوجه والكفين فقط، بينما الثاني يحلل كشف نصف الذراع. والحديث الأول جاء في صيغة الصلاح، بينما الثاني يحلل ويحرم.

---

[1] الإصابة في تمييز الصحابة «لابن حجر» الجزء الثامن الخاص بالصحابيات.

وهناك حديث رابع «لا تقبل صلاة الحائض (المرأة البالغ) إلا بخمار» أخرجه أبو داوود وابن حنبل والترمذي وابن ماجه. ويرى البعض أن هذا الحديث يضعف الحديثين السابقين «فلو أن الأصل أن تضع المرأة غطاء على رأسها عموما، لما كانت ثمة وصية ـ ولا مناسبة ـ لأن يطلب منها وضع خمار على رأسها أثناء الصلاة. فحديث الخمار يفيد أن المرأة لم تكن دائما وأصلا تضعه على رأسها، كما وأن الحديث يوصي بان تضع خمارا على رأسها (لتغطي شعرها) وقت الصلاة فقط[1].

وفي كتب الحديث أحاديث كثيرة عن اللباس منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كل ما شئتَ، واشرب ما شئتَ، والبس ما شئتَ، ما أخطأتك خَصلتان سرفٌ ومَخيلة»، وقال: «أحسِنوا لِباسَكم وأصلِحوا رِحالَكم حتى تكونوا كأنكم شامةٌ في الناس»، وقال «خيُر لِباسِ كلِ زمان، لِباسُ أهلِه» و«إن الله يحب من عبده إذا خرج لإخوانه أن يتهيأ له ويتجمل». وسواء كانت تلك أحاديث صحيحة أو موضوعة فهي تنم عن روح الإسلام الحقيقية التي تجعله بحق ديناً لكل زمان ومكان.

---

[1] المستشار محمد سعيد العشماوي «حقيقة الحجاب وحجية الحديث» ص٢ ص ٧٥.

الفصل الخامس

الرق قبل وبعد الإسلام

كان الرق (حيث كان الإنسان يُباع ويُشترى) نظاما شائعا بين كل شعوب العالم، لذا انقسمت المجتمعات القديمة إلى طبقتين: العبيد (ومنهم الإماء والجواري والغلمان والآغوات والمماليك..الخ) وهم إلى جانب عامة الشعب الذين يستعبدهم الفقر المدقع أغلبية ساحقة، ثم الطبقة الثانية وهي الأقلية بالطبع؛ من الحكام والأثرياء وهؤلاء نساؤهم حرائر محصنات. وكانت الحروب هي التي تحدد مصير البشر، فالجيش المنتصر يغنم أرضا جديدة لقبيلته أو شعبه، ويسترق رجالها بما في ذلك ملوكها و سادتها، و يسبي نساءها. وكان السيد يملك مصير عبده كاملا من حقه أن يبيعه هو و أبناءه، أو يقدمه هدية أو حتى يقتله، فلا يحاسبه أحد، وكان العبد يجبر على العمل ليلا و نهارا تحت السياط في خدمة سيده، وعليه أن يطيعه طاعة عمياء، فلا يحق له الشكوى ولا الهرب منه، وقد وصل الأمر إلى أن كان بعض الشعوب يدفنون العبيد أحياء مع أسيادهم إذا ماتوا، ليكونوا في خدمتهم في العالم الآخر. وفي زمن

الإمبراطورية الرومانية كان السادة يغرمون بمشاهدة المصارعات بين عبد و أسد أو نمر، يتم تجويعه ليكون أكثر وحشية و ضراوة في المصارعة، أو بين عبدين بشرط أن يقتل أحدهما الآخر في نهاية المباراة .

ولم يخرج الفلاسفة القدماء على هذا النظام بل أيدوه وفلسفوه، ورأى أرسطو أن الناس ينقسمون إلى مخلوقين للسيادة ومخلوقين للطاعة، وأن العبد حكمه حكم الآلات الحية التي تنتج وتعمل بلا تفكير. أما أفلاطون فلم يكتف بذلك بل عزا التفرقة بين البشر إلى الإله، و أنه وضع في طينة البعض ذهبا ليمكنهم من أن يكونوا حكاما، و وضع في طينة البعض فضة ليكونوا سادة قومهم، أما العبيد فقد وضع في طينتهم نحاسا وحديداً لكي يتمكنوا من أداء أشق الأعمال بلا كلل. وكثير من الصحابة جرى عليهم الرق كبلال وكان حبشيا وسلمان وكان فارسيا، وصهيب وكان يلقب بالرومي، لأن الروم أسرته من الأيلة و نشأ بالروم ..الخ، وأهدى رسول الله حسان بن ثابت «سيرين» وكانت أمَة قبطية فولدت عبد الرحمن بن حسان[1]..

وقد أيدت الأديان وجود الرق أيضا ففي اليهودية في الإصحاح العشرين من سفر التثنية في العهد القديم يمكن الاسترقاق بشرط التفرقة ما بين العبد اليهودي وغير اليهودي إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم، و في السابعة يخرج حرا مجانا، أما غير العبراني فيسترق إلى مماته هو وذريته. والمسيحية لم تحرم الرق ولم تشجع أتباعها على إلغائه.

---

[1] فجر الإسلام أحمد أمين مكتبة «الأسرة ٢٠٠٠» صفحة ١٣٦.

وكان العرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب ينقسمون إلى سادة و عبيد، والمرأة، في الجاهلية، كانت واحدة من اثنتين؛ إما من الجواري (الإماء)، أو من «الحرائر»، وقد بلغ الرقيق من الكثرة مبلغا جعل منه طبقة اجتماعية كبيرة[1].

وكانت تقام الأسواق في قرى الجزيرة ومدنها لبيع الرقيق، ومن أشهرها سوق عكاظ. كان الرجال الأرقاء يعملون في الزراعة والتجارة و الصناعة، أما الإماء فكن ينهضن بالأعمال المنزلية، وكن يتخذن متاعا للرجل، وإذا كانت الأمة ذات جمال وفتنة، فقد تفوز بقلب مولاها، ويتخذها خليلة له فترتفع عن الخدمة.

ومع ظهور الإسلام، قامت الفتوحات الإسلامية مقام الغزوات في الحصول على الرقيق و السبايا، و مع ازدياد النصر للمسلمين في غزواتهم كثر الرقيق في صدر الإسلام وتزايد عدد الجواري حتى بلغن الألوف، ووجدن في بيوت العامة من الناس. وكانت القاعدة التي أرساها الدين الجديد وقوع الكافر (الوثني) في الأسر، واعتبار الرقيق كالمال والمتاع والآلات الحربية، يمكن للإمام أن ينقله إلى بيت المال، ثم يأخذ الخمس ليصرف في وجوه الخير، والأربعة أخماس الأخرى توزع على من اشترك في القتال[2].

---

[1] الجواري والشعر في العصر العباسي الأول. د. سهام عبد الوهاب الفريح. شركة الربيعان للنشر والتوزيع. ط١١ ـ ١٩٨١.

[2] المرجع السابق ص ١٣.

إن الإسلام يساوي بين كل البشر، و لكن لم يكن من صالح الرسالة في بدايتها ولا صالح العبيد أنفسهم أن يُلغى الرق فورا، لأن ذلك كان بلغة عصرنا، تسريحا لملايين العمال من أعمالهم وإغلاق مئات الآلاف من المزارع والمصانع والمتاجر التي كان الرقيق يشرفون عليها و يعملون بها، وإلغاء الجيوش التي كان جندها من الرقيق وكانوا يؤجرون بأسلاب الحروب. لهذا اقتضت حكمة الخالق إنهاء العبودية بتضييق منابع الرق و سد منافذه إلى أن يتلاشى تماما من المجتمع الإسلامي.

ورغم أن الإسلام لم يلغ الرق، فقد غير الكثير من أحوالهم وأوضاعهم الاجتماعية، فأصبح للرقيق الذمة المالية المستقلة عن مالكه، وأمر المسلمون بمعاملتهم معاملة حسنة، وأصبح من حق العبد أن يتزوج و يكون أسرة، و نص القرآن الكريم على أنه من الجائز التزاوج بين الأحرار و العبيد {وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم و إمائكم}، وأباح الوصية للرقيق بالمال شرط ألا تتجاوز ثلث التركة. وقد منع الإسلام استرقاق المسلمات الحرائر، والكتابيات اللواتي يقمن في ديار الإسلام، وإذا ولدت الجارية لسيدها لم يعد في استطاعته بيعها أو هبتها، ولا تورث بعد وفاته، و أولادها منه أحرار لهم ما لأولاد الحرائر من الحقوق و الواجبات، يرثون آباءهم. وقد يعتق المالك جاريته ويعرض عليها الزواج فإذا قبلت أصبحت لها كل ما للحرة من حقوق شرعية، وإذا رفضت لا يحق له أن يعيدها إلى ملكه، وتصبح حرة طليقة.

ومن القواعد التي أرساها الإسلام بالنسبة للرقيق تطبيق القيود التي فرضها في الزواج بالحرائر على الإماء، فلا يجوز الجمع بين أختين، أو أم و ابنتها، أو العمة وابنة أخيها، وغيرهن من ذوى الأرحام. وحرم الإسلام أن يشترك رجلان في جارية، واعتبر ذلك زنىً صريحا يستحق مقترفه العقاب.

وفي العصر العباسي كثر الرقيق من أجناس مختلفة كثرة مفرطة بسبب توالى الحروب، وامتلأت القصور ودور القيان والنخاسين بالجواري السود من أفريقيا والبيض من تركيا وصقلية وبلغاريا بالإضافة إلى الهنديات والفارسيات والروميات وتغير الوضع الاجتماعي للجواري عما كان عليه في العصور السالفة أغرم بعض الخلفاء والأمراء بالغلمان من الرقيق، وكان الشعراء يتغنون بهم في أشعارهم، لدرجة أن الجواري ارتدين ملابس الغلمان ليرضين سادتهن. وكان يتم إخصاء الغلمان (ببتر العضو الذكري)، لكي يكونوا صالحين لخدمة النساء وحراستهن داخل الحريم الرقيق.

وتبعا لذلك النظام العالمي كانت المرأة ينظر إليها كمتاع، أو سلعة يمكن أن تُشترى من السوق و يمتلكها رجل أو ربما امرأة أو عائلة، فتصبح جارية، أما الحرة فلم تكن أسعد حظا، إذ كانت تُحجز داخل الحريم، و تُحرم من أغلب الحقوق الإنسانية بدعوى حمايتها أو «تحصينها» ضد الغرباء. و قد تركز النظر إلى كليهما على الجسد وحده، وما تمتلكه من صفات تثير المالك وتشبع غريزته الجنسية، و نرى ذلك في وصف خالد بن

صفوان لأبي العباس السفاح في حديث قال فيه: «فلو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء والسمراء اللفاء، والصفراء العجزاء، والغنجة الكحلاء، والمولدات من المدنيات والملاح من القندهاريات (السنديات) ذوات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة، والاصداغ المزرفنة، والثدي المحققة»[1].

وقد زاد عدد الجواري عن الرقيق من الرجال، وأحل الإسلام للرجل أن يمتلك ما شاء من السرائر و الإماء، فيقول الأصفهاني في كتابه «الأغاني» إن هارون الرشيد وزوجته زبيدة - إن صحت الرواية - امتلكا زهاء ألفي جارية في احسن زي من الثياب والجوهر، وكذلك فعل الأمين والمأمون والواثق والمعتصم، أما المتوكل فقد زادهن إلى أربعة آلاف سَرية من مختلف الاجناس، وكان الناس يتهادون الجواري كما يتهادون التحف والهدايا، و كانت بعض الحرائر يشترين أجمل الجواري ويهدينهن لأزواجهن، كما فعلت زبيدة زوجة الرشيد، عندما تعلق الرشيد بدنانير جارية البرامكة وأخذ يكثر من التردد عليها فاشترت له عشر جوار جميلات و أهدتهن اليه لتشغله عن حب دنانير، وكان من بين هؤلاء الجواري ماردة أم المعتصم، ومراجل أم المأمون، و فاردة أم صالح.

---

[1] الجواري في الشعر ص ٢٢.

وكانت الجارية تقيَّم حسب الثمن الذي دُفع فيها، فكلما زاد ثمنها، ارتفعت قيمتها، فبينما كان سعر العبد ينخفض إلى مائتي دينار في النصف الثاني من القرن الهجري، كان بعض الأمراء والأثرياء يدفعون عشرات الآلاف في جارية واحدة.

وكما يحدث مع أي بضاعة، كان التجار العبيد «النخاسون» وأغلبهم من غير العرب، يتفننون في إظهار محاسن من يعرضوهن للبيع من الجواري الأجنبيات، وتطور التجميل فصار فنا أو علما له أصول و قواعد، يداري بها العيوب و يبرز المحاسن ليرضي ذوق المشتري. وكانت أعلى الأسعار تدفع في «القيان»، أي الجواري المدربات على الغناء وتسلية الناس والترفيه عنهم، ويعرضهن النخاسون فيما كان يسمى بدور القيان، التي انتشرت في المدن العباسية وكان يؤمها الأمراء والأثرياء والشعراء وعشاق المتعة ليستمتعوا بما تقدمه القيان من فنون الرقص و الغناء. وكذلك كن يستأجرن لإقامة الحفلات في بيوت العامة أو لمدة ليلة أو أكثر «ومن حقنا أن نرى ما يترتب على مثل تلك المنافسة من شيوع الأناقة والجمال في المظهر في تلك الدور وما فيها من مجالس إلى جانب ترقية التعامل في داخلها من حيث الرفق بالمترددين عليها و مراعاة مشاعرهم، وربما الاستجابة لأهوائهم أيضا فلو قلنا ان هذه الدور كانت أشبه بما في النوادي الليلية في زماننا، لم نكن مخطئين[1].

---

[1] الجواري في الشعر ص ٣٠.

ويصف الجاحظ في رسائله تلك الدور وما كان يحدث فيها بالتفصيل، وقد جاء وصفها أيضا في أشعار العديد من كبار الشعراء العرب مثل أبو نواس ومحمد بن الأشعث.. وغيرهما..

وقد حظيت بعض الدور بشهرة كبيرة مثل دار بن رامين ودار زريق بالكوفة وكانت المنافسة بينهما على أشدها، ودار القراطيسي التي كان يتردد عليها أبو نواس و أبو العتاهية وحسين الخليع، ودار حرب الثقفي ببغداد.

ولرفع سعر الجارية كان أصحاب الجواري يختارون بعضهن من المولدات وصغيرات السن ويقومون بتعليمهن وصقل أذهانهن وتحفيظهن القرآن الكريم والأشعار واللغة والنحو وتدريبهن على رواية الأخبار ونظم الشعر وفنون الغناء وعزف الآلات الموسيقية كالعود والرق، وبذلك ارتفعت مكانة بعضهن ونافسن الشعراء وكن يتخاطبن مع عشاقهن بالشعر، وينقشن أبيات الغزل على المناديل والعصائب والذوائب والوسائد والبسط (ص٤٤) وعلى ملابسهن و الأوشحة، وأصبحن يجادلن في سائر العلوم والفنون، وصرن يقيمن بثقافتهن و ليس بأجسامهن، وصرن أحظى عند الرجال من الحرائر واستطاعت بعضهن أن يصبحن من ذوي النفوذ يدخلن الدواوين ويجلسن إلى الناس ويتصرفن في كثير من الأمور. وقد بلغ تأثير الجواري على المجتمع العربي إلى حد أن تأثرت الحرائر بأساليب الإماء و كن يقلدنهن لكي يجذبن قلوب رجالهن، وكان الرجل العباسي يطلب من زوجته أن تقتدي بالجواري وتتزين على طريقتهن ..

تأثير الرقيق على النظام الاجتماعي:

كانت لظاهرة الرق أضرار بالغة بكل المجتمعات التي انتشرت فيها، كما كان ذلك النظام الجائر سببا مباشرا لسقوط الحضارات القديمة التي عرفته و شرعته. وقد أخذ المسلمون نظام «الحريم» عن الفرس في عهد الوليد الأموي الثاني، واستخدموا الخصيان في عهد معاوية، آخذين ذلك من الروم، وبدأ الفصل التام بين الجنسين بأمر الخليفة المتوكل، وفي العصر العباسي قويت شكيمة المسلمين وزادت انتصاراتهم، وظهر تجار الرقيق الذين اتخذوا من خطف نساء وغلمان البلاد المحيطة بالدولة الإسلامية، وبيعهم كأرقاء في الأسواق العربية كتجارة رابحة، لذلك زاد عدد النساء الرقيقات (الجواري) زيادة كبيرة، وصار الأمراء والأثرياء يتسابقون في شرائهن، وتنوعت أجناسهن وألوانهن من رومية إلى يونانية إلى سودانية أو هندية..الخ. وجلبن معهن عادات وتقاليد مجتمعاتهن ونشرنها في المجتمع العباسي، ووفقا لتعاليم الإسلام لم يرغمهن سادتهن على اعتناق الإسلام، وقد بقيت كثيرات منهن محافظات على دينهن القديم وتركت لهن الحرية في أداء طقوسهن وكان كثير من الناس يشاركونهن المناسبات الدينية والأعياد، وفي أشعار الكثير من الشعراء ما يدل على مشاركة الجواري المسيحيات والفارسيات أعيادهن، وليس ذلك بمستغرب إذا علمنا أن بعض الخلفاء العباسيين ولدوا لأمهات

من الإماء مثل المأمون والقاسم والمؤتمن والمعتصم الذي ولد لأم ولد تركية وكان لذلك أثره عليه ففضل الأتراك على الفرس والعرب وقربهم إلى الحكم، وتزوج المعتصم من جارية تركية تدعى شجاع ولدت له المتوكل وجارية أخرى رومية ولدت له الواثق.

وكان الرق السبب الرئيسي وراء فساد الأخلاق، وجري الرجال (عزاب ومتزوجين) وراء المتع الحسية التي تمنحها لهم الإماء في دور القيان والنخاسة، اللاتي تربين على«لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث، و(نشأن) بين الخلعاء والمجان» وقد وصفهن الجاحظ وصفا دقيقا في رسائله فقال: «إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودها، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقتحموا في أشوطتها، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته في أشعار الغناء، ولهجت باقتراحاته. ونشطت للشرب عنده، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصبابة لسرعة عودته والحزن لفراقه، فإذا أحست أن سحرها قد نفذ فيه أوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها ثم كاتبته تشكو هواه»[1].

وفي الوقت الذي كان الرجال يستمتعون بالحرية الجنسية المطلقة مع الإماء والقيان، وبمجالستهن وتبادل الغرام معهن ومبارزتهن بالشعر والملح والطرائف حسبما جاء في العديد من كتب التراث الأدبي، فقد تفننوا في حبس نسائهم وألزموهن

---

[1] الجاحظ في «رسالة القيان».

بالبقاء مرهونات في بيوتهن وبوضع حجاب ثقيل على وجوههن وعينوا لخدمتهن وحراستهن الخصيان والأغوات ومنعوهن من المشاركة في الحياة العامة وعزلوهن كالأسيرات داخل الحريم. وبذلك أصبح الوضع في المجتمعات الإسلامية معكوسا: فالحرائر فقدن حريتهن ومنعن من مخالطة الرجال من غير ذوي القربة، واعتقلن داخل دورهن لا يبرحنها إلا للضرورة القصوى، بينما الجواري يملكن حرية مطلقة في الحياة والحركة والاختلاط بالرجال عل اختلاف صنوفهم. وتأثر فقهاء ذلك الزمان بتلك الأوضاع التي وجدوها في مجتمعاتهم و ظنوها ستبقى إلى الأبد و لن تتغير، واختلط عليهم الأمر فقيموا النساء جميعا على أنهن إماء، وجواري وحصروا مهام المرأة في إرضاء سيدها و مالكها، متناسين إنسانيتها وكبرياءها، واتسمت نظرتهم للمرأة بالازدراء وأمعنوا التحذير من الخضوع لها والوقوع في أسر صفاتها السيئة، ولووا أعناق النصوص الدينية لتصلح لفتاوى تساير ظروف مجتمعهم.

كانت المجتمعات منذ القدم تميز الحرة من الأمة، أو الجارية، عن طريق الزي الذي ترتديه، فالحرة كانت ترتدى ثوبا سابغا فضفاضا، كدليل على العز والثراء (القدرة الشرائية)، أما الجارية فلم يكن يستر بدنها عادة إلا ملا بس بسيطة أو لا شيء سوى الأسمال. وأجمع المفسرون القدامى على التفرقة بين المرأتين: الأمة والحرة. فالأمة (أو الجارية أو العبدة) جعلوها ممنوعة من ارتداء الخمار (كما كان سائدا لدى الآشوريين).

قال ابن تيمية في تفسيره لآية الخمار: الحجاب مختص بالحرائر دون الإماء كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي، صلى الله عليه وسلم، وخلفائه، أن الحرة تحتجب والأمة تبرز، (وهو هنا يستخدم لفظ الحجاب بدلالته الشائعة وليس بمعناه القرآني) ويقول «وكان عمر رضى الله عنه إذا رأى أمة تختمر ضربها وقال: أتتشبهين كالحرائر، أي لكاع![1] فهل يعني ابن تيميه أن الإسلام حرم على الجواري أن يرغبن في حماية أنفسهن من فسق المنافقين والمستهترين! أغلب الظن أن عمرا بغيرته التي اشتهر بها كان سيعلو بالدرة (سيضرب بالسوط) أولئك الفاسقين تنفيذا لشرع الله. و هل كان رجلا في قوة إيمان عمر رضي الله عنه ينسى أو يتجاهل الآية الشريفة {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم} النور ٣٣.

وهي الآية التي جاء في سبب نزولها أن جاريتين مسلمتين تدعيان أميمة ومسيكة كانتا أمتين لعبد الله بن أبي (من قبيلة الخزرج وزعيم المنافقين) اشتكتا إلى رسول الله أنه كان يكرههن على البغاء فاستجاب الله لشكواهن (الإصابة لابن حجر).

وجاء في تفسير الطبري: «ذكره لنبيه، صلى الله عليه وسلم، يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المسلمين لا تتشبهن بالإماء في لباسهن»[2].

---

[1] «فتاوي ابن تيمية» مجلد ١٥، ص ٣٧٢.

[2] اختلف علماء مع هذا التفسير ومنهم فضيلة الشيخ الدكتور سيد طنطاوي وقت أن كان مفتياً فأورد رأي الإمام أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ج٧، ص

ولا أعلم من أين أتى الطبري بهذه العبارة التي أضافها من عنده إلى كلام الله تعالى، فالتفسير يبغي إيضاح معاني الكتاب الكريم وليس تغيير كلام الخالق أو إضافة ما ليس فيه.

والمشكلة التي يواجهها الفقهاء المحدثون اليوم هي أن القرآن الكريم ليست به آية واحدة تحرم الرق أو تلغيه، بل هناك مواضع عديدة تنظم الرق و تذكر التسري بالجواري، ورغم ذلك أُلغي الرق رسميا في تشريعات كل الدول الإسلامية. فإذا أراد شخص ما أن يشتري جارية ويمارس حقوقه كسيد فيعاشرها جنسيا بدون زواج أو يهبها لصديق أو يبيعها في السوق .. الخ لن يكون في هذه الحالة عاصيا آثما (في نظر الشرع) وإن كان سيحاكم ويعاقب بحكم القانون.

أحدث الإسلام ثورة غير مسبوقة في العلاقات الاجتماعية وساوى بين كل البشر، رجالا ونساء، من كل الأجناس {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} (الحجرات: ١٣).

وفي الحديث الشريف «الناس سواسية كأسنان المشط» و«لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى». وبالتالي لم يعد مستساغا أن تتم التفرقة بين المسلمين ولا نسائهم، وانتفت الحاجة إلى زي يميز الحرة عن العبدة، فكل من دخلت الإسلام

---

٢٥٠ و«الظاهر أن قوله نساء المسلمين يشمل الحرائر والإماء، والفتنة بالإماء أكثر، لكثرة تصرفهن، بخلاق الحرائر، فيحتاج إخراجهن - أي الإماء - من عموم النساء إلى دليل واضح، ولا دليل هنا..» سعيد العشماوي ص ٢٩.

صارت حرة بالإسلام محصنة بالعقيدة، وصار لزاما على الحاكم المسلم أن يحميها ويوفر لها الأمان. وتبعا لذلك الفهم كان من المفروض إذا أشهرت السبايا (أسيرات الحروب) إسلامهن أن يتم إعتاقهن على الفور، ولكن رجال المسلمين غضوا الطرف عن ذلك واستمروا يستعبدون الرجال والنساء ويبيعونهم في الأسواق، حتى بداية القرن العشرين[1]!

لم يشغل فقهاء العصور السالفة أنفسهم بمسألة الإماء والحرائر، لأن الرق (سواء بالسبي أو بخلافه) ظل ساريا في عصورهم. واليوم، بعد أن أرغمت أوروبا الحكومات الإسلامية على إلغاء الرق بمقتضى معاهدات دولية، وانتهى عهده إلى الأبد، ورغم ذلك لم يحاول أي من الفقهاء المحدثين أن يخوض في مسألة شائكة كالحجاب، الذي فُرض على المسلمات أربعة عشر قرناً كاملة بحجة التمييز بين الإماء والحرائر؟ وما زالوا يكررون ما قاله الطبري والقرطبي وابن تيمية وغيرهم في هذا الصدد. لقد تطورت البشرية بأمر الله، وألغت الرق و ساوت بين جميع البشر، وأزاحت الظلم عن النساء وأعادت للمرأة حقوقها كاملة، ومن حقنا أن نتساءل: ألا نعيش في عالم يختلف كل الاختلاف عن العالم القديم الذي أصدر فيه أولئك الفقهاء فتاواهم؟

---

[1] ألغت دولة السعودية الرق عام ١٩٦٢م.

المرأة اليوم غير المرأة قبل خمسة عشر قرناً مضى، ملايين النساء خرجن إلى العمل و أصبحت ثلث العائلات في كل الدول النامية تنفق عليها النساء وتعملن في كل المجالات بلا استثناء تحميهن الدساتير والقوانين والمعاهدات الدولية. المرأة اليوم في بلاد كثيرة أصبحت تشارك في الحكم كرئيسة للجمهورية وللوزراء ولوزارات مختلفة كالدفاع والاقتصاد والتعليم والصحة والبحث العلمي..الخ وتمثل بلادها كسفيرة وتربي النشء في كل مراحل التعليم وترأس المعاهد والجامعات وتخضع لقوانين وتعليمات العمل (حكومة أو قطاع عام أو خاص..الخ) وتضطر للخروج ومخالطة الرجال، وبالتالي أصبح من الضروري إعادة حقوقها إليها والنظر إليها كإنسان كامل الأهلية، لا جارية تباع وتشترى في الأسواق ويتحكم فيها سيدها.

فمتى يجتهد فقيه من المحدثين ليحدث العالم من خلال تقنيات العولمة حديثا مقنعا في مسألة وضع المرأة في الإسلام دون أن يكرر ما قاله علماء القرن العاشر الميلادي وما قبله..؟! تغيرت أحوال الدنيا وعلاقات البشر، ومازال الفقهاء العصريون يتجنبون تماما الخوض في مسائل شائكة مثل الرق و«ما ملكت أيمانكم»، و«أو ما ملكت أيمانهن»، الأمر الذي قد يوحي للغرباء بأن الرجل المسلم لا يزال يملك الحق في أن يشتري امرأة بماله يمتلكها، ويستولدها دون عقد نكاح، ويصبح من حقه أن يتحكم فيها، له أن يبيعها أو يهبها للغير!

جاء الإسلام والرق واقع وعرف وأساس اقتصادي واجتماعي في العالم كله. فالإسلام لم يشرع الرق، وكذلك لم يلغه، أو يحرمه بآية قرآنية صريحة. ولكنه أيضا لم يتجاهله مثلما فعلت الأديان الأخرى ولم يشجعه، وإنما حث وعمل على تصفيته تدريجيا من خلال تضييق مصادر الاسترقاق وتوسيع منافذ الإعتاق. إن عتق الرقبة (أي تحرير عبد أو أمة) كفارة للحنث في اليمين، (سورة المائدة: ٩٨)، وكفارة الظهار (المجادلة: ٤،٣) وكفارة القتل الخطأ (النساء: ٩٢) وكفارة الإفطار المتعمد في رمضان، وإذا رغب العبد في أن ينال حريته فعلى سيده أن يمنحها له مقابل بعض المال (المكاتبة. سورة النور: ٢٣)، بل إن الجارية تنال حريتها إذا ولدت لسيدها، هي وكل من تأتي بهم من بنات أو بنين (المستولدة)، وكان يقال في ذلك: قد ولدت الأمة بعلها، وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول عن مارية، رضي الله عنها، «أعتقها ولدها». كما خصص الإسلام جزءا من مال الزكاة لعتق الرقاب.

ومسألة الرق مثلها مثل تعدد الزوجات والخمر والميسر، وكذلك الحجاب، كلها كانت موجودة قبل الإسلام وتقررت حكمة الخالق عز و جل في أن يتدرج المسلمون في اجتنابها حتى تتلاشى تلقائيا مع التطور الاجتماعي. وفي القرآن نصوص صريحة تحرم العديد من الأمور، أما الرق فلم يحرم بنص صريح، وكان المفروض أن يتلاشى تماما من بلاد المسلمين، ولكنهم تشبثوا به وتحايلوا على التشريعات الإلهية، فظل ساريا

بين الشعوب الإسلامية[1]، واستمر التسري بالجواري وبيع العبيد تجارة مربحة اشتهر بها بعضهم حتى أُرغموا قسرا على إلغائه بواسطة الحكومات الغربية المسيحية. وقد لا يعرف الكثيرون من أبناء الجيل الحالي أن ثورة المهدى اندلعت في السودان ضد الخديوي إسماعيل لأنه قرر إلغاء تجارة الرق في السودان (بعد أن وقع على معاهدة إلغاء الرق بضغط من الحكومة البريطانية عام ١٨٧٧م).

أصبح الرق اليوم ممنوعا باتفاقية دولية التزمت بها كل دول العالم، وقد عفى الزمن عليه وتخطاه، فلماذا لا يسري نفس الحكم على حجاب المرأة وهو من المعاملات (وليس من العبادات) ويعتبر من مسائل العرف والعادات، ويخضع للتغيرات الزمنية والبيئية ولا يوجد عقاب شرعي صريح على من تتركه![2]

---

[1] ألغي الرق في مصر بالقانون (الديكريتو) الصادر في ٤ أغسطس ١٨٨٧، ثم أصدر الباب العالي (السلطان في تركيا) ديكريتو في ٢١ يناير ١٨٩٦م.

[2] لا توجد آية تخص شعر المرأة أو تعتبره عورة، ولا يوجد عقاب في القرآن الكريم على السفور.

الفصل السادس

الحجاب والهوية الإسلامية

إن الحجاب لم يكن بدعة إسلامية ومع ذلك ألصقه أعداء الإسلام بالدين الحنيف لكي يدعموا نظريتهم التي تصمه بقهر المرأة ورأوا فيه دليلا على ازدرائها والتحكم في إرادتها وحرمانها من حرية الاختيار، واتفق معهم أنصار الحجاب فجعلوه فريضة دينية، تدل على تعفف المرأة واحتشامها وتحميها من الرجال الفاسقين، ووصموا من لا تلتزم به من المسلمات بالعصيان وارتكاب الإثم. وبعد أن أوشك الحجاب على التلاشي من المجتمعات العربية، عاد ليُرفع كشعار سياسي وكدليل على هيمنة الفكر السلفي الذي فرضته الجماعات الدينية على المجتمع العربي بعد هزيمة الجيوش العربية أمام إسرائيل، وهي دولة دينية، في ١٩٦٧م، وأصبحت الجماعات المتطرفة تفرضه قسرا على الفتيات، وقد وصلت بعض تلك الجماعات في الجزائر إلى حد ذبح العديد من النساء وتلميذات المدارس لعدم التزامهن بارتداء الحجاب.

ويرى المؤيدون للحجاب أن الخمار رمز للهوية الإسلامية، وأن المسلمة الصالحة المعتدة بدينها عليها أن ترتديه حتى تتميز عن الأخريات. ومثل هذا التفسير لفرض الخمار على النساء يستدعي من غير المسلمين أن يتساءلوا: لأي سبب يجب أن تتميز المسلمات في عصرنا هذا عن غير المسلمات..؟! لقد فرض الحجاب على المسلمات في زمن الفوضى الاجتماعية وغياب القوانين والشرطة والمحاكم {وذلك حتى يُعرفن فلا يؤذين}، وكُتب المفسرين القدامى تذكر أنه نزل ليميز الحرائر عن الإماء، واليوم بعد أن انتظمت المجتمعات العصرية، وانتهى الرق تماما في كل بلاد العالم، هل يعود الحجاب لأنه من المسموح به في المجتمعات الإسلامية هتك عرض غير المسلمات والتعرض لهن بالإيذاء البدني والمعنوي؟! الواقع أننا نجد في التاريخ ما يؤيد هذا الظن، ففي كتاب «رد المحتار على الدر المختار» لابن عابدين يقول: «إن الأصل تمييز غير المسلمين عن المسلمين وإذا وجب التمييز، وجب أن يكون بما فيه ذل وصغار لهم كي لا يعامل غير المسلم معاملة المسلم، في التوقير والتعظيم»، «فلا يركب غير المسلم خيلا مطلقا وإن ركب حمارا ينزل عنه عندما يمر بالمسلمين، ولا يسكن دارا عالية البناء، ويجعل على داره علامة، لئلا يقف عند داره سائل، و يدعو له بالمغفرة»!! ، «وعليه أن يظهر الكستيج مزنرا به فوق ثيابه، محوكا من خيوط الصوف والشعر الثخين، والكستيج فارسي معرب، معناه الأصلي العجز والذل، ولا يلبس الثياب الفاخرة كصوف مربع، وجوخ

رفيع، وأبراد رقيقة، لا يلبس زنار الأبريسم،.... وإنما يلبس قلنسوة طويلة من كرباس أو لبد، مصبوغة بالسواد، وتجعل مكاعبهم (مداساتهم) خشنة، فاسدة اللون، وكذا تؤخذ نساؤهم بالزي في الطرق، فيجعل على ملاءة اليهودية خرقة خضراء، وعلى ملاءة النصرانية خرقة زرقاء، وينبغي لغير المسلم أن يلازم الصغار فيما يكون بينه وبين المسلم في كل شيء، وعليه فيمنع من القعود حال قيام المسلم عنه، ويحرم القيام له تعظيما، وتكره مصافحته، ولا يبدأ بسلام إلا لحاجة، ولا يزاد في الجواب علي وعليك»..

مثل هذه النصوص مازالت موجودة في كتب التراث الإسلامي، ولا بد أن المستشرقين قد اطلعوا عليها وترجموها، ووجدها من يعادي الإسلام منهم ذريعة لتوجيه الاتهامات إلى المسلمين بأنهم يشيعون التمييز العنصري في مجتمعاتهم. والإسلام بريء مما يفتريه المسلمون وأعداؤهم، ولدينا من النصوص ما يثبت ذلك، ويبرهن على تحضر الإسلام وسبقه لكل العصور في المساواة بين البشر، حتى الذين يخالفونه منها على سبيل المثال:

قال تعالى: {هو الذي أنشأكم من نفس واحدة... عسى أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم مودة. لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين}.

{ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم}.

{وإذا حييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها}

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحض المسلمين على احترام أهل الكتاب، فضلا عن أن الإيمان برسلهم أحد أركان الإسلام. ولذا روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من آذى ذميا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»، وقال «من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت أنا خصمه خاصمته يوم القيامة». وقال: «أشرف الإيمان أن يأمنك الناس وأشرف الإسلام أن يأمن الناس من لسانك ويدك».

لقد انقضى الزمن الذي يمكن أن يفيد فيه التمييز بالزي في منع الإيذاء عن المسلمات. وقد رأينا أنه ربما جلب عليهن المشاكل عندما يدل على هويتهن؛ ففي لبنان اندلعت حرب أهلية في منتصف السبعينات، كانت النساء المحجبات عُرضة للقتل بواسطة قناصي الميليشيات المسيحية (القتل على الهوية)، وفي البوسنة ارتكب الصرب جرائم الاغتصاب والتعذيب ضد المسلمات البوسنيات، ومازالت المسلمات اليوم في بداية القرن الحادي والعشرين من الفلسطينيات والشيشانيات والألبانيات والباكستانيات والهنديات وغيرهن، تلاقين الأهوال من جنود الجيوش المتصارعة في عالم يموج بالمعارك الدينية.

عانت أوروبا طوال العصور الوسطى (المظلمة) من صراعات دموية بين طوائف الدين الواحد (المسيحي).

أما اليوم فإن أغلب الدول الغربية أصبحت علمانية، تسمح بحرية الاعتقاد وممارسة الشعائر لكل الأديان بلا استثناء، ووفقا لدساتيرها لم يعد مسموحا بالتفرقة أو التمييز بين المواطنين لأي سبب، وألغي تعريف الديانة من البطاقات الشخصية. وبمقتضى ذلك أصدرت إحدى المحاكم في فرنسا حكما بطرد فتاتين مسلمتين من إحدى المدارس الفرنسية بسبب ارتدائهما الحجاب، وثار بين الرأي العام جدل طويل حول هذا الموضوع، و قيل في ذلك إن الحجاب يمكن أن يعرضهما للإيذاء من قبل المتعصبين المسيحيين، أو اليمين الرافض لوجود أجانب في فرنسا.

وفي تركيا، بلد الخلافة الإسلامية سابقا، وافقت أغلبية من الأعضاء على طرد نائبة في البرلمان وإلغاء عضويتها، بسبب ارتدائها الحجاب، وذلك لأن دستور الدولة يقرر أنها دولة علمانية لا تمييز فيها بين المواطنين على أي أساس. وحتى في مصر، وهي بلد إسلامي بحكم الدستور، لم تتورع الذئاب البشرية عن ارتكاب جرائم اغتصاب عديدة ضد الفتيات المحجبات. بل أن الحجاب لم يثبت حمايته لمن ترتديه من وسوسة الشيطان، ولم يعصمها من الزلل، بل أوشك أن يتحول إلى طاقية إخفاء ترتديها بعض المنحرفات ليسترن نشاطاتهن المنحرفة ويرتكبن جرائم لم يسبقهن إليها أحد (مثل جرائم قتل الزوج بمساعدة العشيق أو بدونها، وتقطيع الجثة وتعبئتها في أكياس للتخلص منها في أماكن متفرقة)!! وصدق رسول الله

صلى الله عليه وسلم الذي روى أنه استيقظ ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أُنزل الليلة من الفتن وماذا فُتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رُب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»[1].

الحجاب والفتنة

كان المفروض أن تصبح المرأة المسلمة أول من تنال حقوقها كاملة بين نساء العالم، وفقا لشريعة الإسلام التي رفعت من شأنها ومنحتها من الحقوق ما لم تمنحه أية عقيدة دينية أخرى، ولكن المسلمين ظلوا يحتفظون بأفكار الجاهلية التي كانت تتجاهل إنسانية المرأة ولا ترى فيها سوى جسد يحفظ النوع ويلبي الاحتياجات الحسية ويرضي الغريزة الجنسية. وقد استسلم لهذه الأفكار بعض الفقهاء القدامى وعلى مدى ثلاثة عشر قرن ميلادي (وأربعة عشر قرن هجري) حجبوا الجانب المضيء في الشريعة الإسلامية، وركزوا على العادات والتقاليد المتوارثة عن المجتمع الجاهلي وخلطوهما بحيث ظهرت تلك الموروثات البشرية وكأنها من جوهر الدين الحنيف. والدليل على ذلك أن هؤلاء الفقهاء، وفقا لنظريتهم القديمة في التفرقة بين الحرة والأمة، ظلوا لقرون طويلة يعتبرون كل النساء إماء، وحرموا المرأة المسلمة من حقوقها التي شرعها الإسلام كالتعليم والعمل الشريف والمشاركة في الحياة العامة..الخ، واعتبروها

---

[1] تفسير القرطبي - كتاب الشعب - صفحة ٥٣٢٦.

كلها، أو بعضا منها عورة(!) وحبسوها داخل سجن الحريم لا يحل رؤيتها أو التعامل معها إلا بواسطة مالكها (الذي اشتراها بماله أو أضافها لحريمه بعقد نكاح). وظل المسلمون يمارسون تجارة الرقيق ويحتفظون في بيوت أغنيائهم بالجواري والسراري والعبيد والغلمان والخصيان..الخ حتى بداية القرن العشرين!!

واليوم، بعد أن تطورت المجتمعات البشرية، وسُنت القوانين التي تساوي بين المواطنين جميعا، واسترد البشر إنسانيتهم وكرامتهم، وتعلمت المرأة وخرجت إلى الحياة العامة، وأثبتت جدارتها في كافة ميادين العمل، وتفوقت الكثيرات من النساء على الرجال في المهن التي حُجبن عنها طويلا كالطب والهندسة والمحاماة والدبلوماسية والقضاء..الخ، وحصلن على أرقى الجوائز المحلية والعالمية في العلوم النظرية والعملية والآداب والفنون، وبعد أن تقلدت النساء أعلى المناصب ووصلن، بالانتخاب الحر النزيه، إلى رئاسة الوزراء ورئاسة الجمهورية، هل يسري عليهن ما كان يسري على نساء القرون الماضية، وتظل النظرة العامة إليهن محصورة في أجسادهن وحدها..؟! هل تستطيع قطعة نسيج أن تحمى شرف المرأة و تجبرها على العفة..؟!

متى يقر المجتمع الإسلامي بأن للمرأة عقل قادر على حمايتها، وضمير يقودها إلى الحق والفضيلة، ونفس لوامة تخشى الله في السر والعلن، وقد أصبح العلم حصنها والكرامة الإنسانية شعارها..! متى يجبر الرجال جميعهم على احترام المرأة ومقاومة نفوسهم الضعيفة الأمارة بالسوء..!

ألا يصح بعد أربعة عشر قرناً من نزول الرسالة واستقرار الإسلام وانتشاره في العالم كله، أن تخلع المرأة حجاب الخوف والجهل، وأن يتسلح الجميع، رجالا ونساء، برداء التقوى والعفة والاستقامة..!

إن التقوى وحدها هي معيار التكريم عند الله سبحانه وتعالى، وليس الجنس أو النوع أو العرق في العقيدة الإسلامية التي ساوى فيها الله بين كل البشر: {وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة} الأنعام ٩٨.

والله تعالى لا يقيم الناس بمظهرهم الخارجي، أو صورهم، ولكن بما تحمله عقولهم وقلوبهم من أفكار ونوايا، وبأفعالهم: {من عمل صالحا وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}. وجزاء العمل الصالح في آية بينة صريحة: {من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يُرزقون فيها بغير حساب} و{من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}.

والمفروض على المرأة المؤمنة أن تتأى بنفسها عن الإغراء، بغض البصر الذي أُمر به المسلمون رجالا ونساءً، وعدم التبرج[1]، وباللباس المحتشم الذي لا يلفت الأنظار وبالاستقامة: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (الأحقاف ٤٦).

---

[1] المصباح المنير: التبرج هو الإفراط في إظهار الزينة والمحاسن للأجانب.

وفي الحديث الشريف: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» (رواه مسلم).

إن العفة هي السلاح الحقيقي للمرأة ضد كل المغريات، خاصة في عصرنا الحاضر. وهي لا تُفرض عليها بزي، قد ترتديه مذعنة وتخفي تحته باطنا قبيحا، وإنما تنبع من أعماقها بالتنشئة الصحيحة، وبتعويدها على التقوى وتربية ضميرها (أي الخوف من الله السميع العليم بكل شيء)

«والقواعد[1] من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن[2] ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن و الله سميع عليم» (الآية ٦٠ من سورة النور).

إن العفة أفضل سلاح للمرأة، وهي قرار اختياري نابع من العقل، ومن الرغبة في طاعة الخالق عز وجل، وهي التي يمكن أن تحصنها من الزلل. قال تعالى: «ولباس التقوى ذلك خير»، وقديما قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التُقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

---

[1] القرطبي: قواعد مفردها قاعدة بسبب الكبر، أو عن الولد والمحيض، وابن كثير: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد، اللاتي لا يرجون نكاحاً.

[2] «أن يضعن»: أن يخففن، وامرأة واضع: أي خلعت خمارها.

الفصل السابع

آراء مع الحجاب

أهم غرض يدفع به المؤيدون للحجاب هو حماية المرأة من الذئاب، الذين يقصد بهم الرجال، أو كما جاء في الآية الكريمة: المستهترون والمنافقون. ولا شك أن المرأة في كل عصر، بل والمجتمع كله، في حاجة للحماية من المستهترين الذين يرتكبون جرائم الاغتصاب ويهتكون الأعراض ويستهينون بالقيم والمبادئ ويضربون عرض الحائط بالتقاليد والآداب. ونجد الشكوى من هؤلاء في كل زمان ومكان، ذكرهم القرآن الكريم في أكثر من آية، واليوم مازالوا يرتعون ويرتكبون جرائمهم في كل بلاد العالم.

ونجد وصفا بليغا لهؤلاء الذئاب في كتاب نشر منذ مائة عام عنوانه «الحجاب. نعمة وأمل لا نقمة وألم»[1]، عن مقال للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي ضمنها كتابه «العبرات».

---

[1] أعادت نشره مكتبة منارة العلماء لإحياء التراث الإسلامي.

والمقال مكتوب على شكل صورة أدبيه يسميها كاتبها قصة، ويقول إنه عايشها فصاغ منها قطعة فنية أدبية، ليس لخيال فيها سبيل، وقد دعاه إلى ذلك ما لاحظه في زمانه (بداية القرن الماضي) من:

«إن الذئاب البشرية قد خرجت من أوكارها وكشرت عن أنيابها، وبدأت دونما وعي أو ضمير ـ تعبث بأعراض النسوة والفتيات».

التقط المقالة ناشر معاصر ليعيد نشرها وحدها ويقدمها ليؤكد للجميع «أن الأفضل والأكمل والأتقى للمرأة في الأزمان كلها عامة، وفي زماننا المنكود المنكوب هذا: هو سدلها حجابها كما أمرها ربها ـ عز شأنه ـ لكيلا تدع بديع صنع الله سبحانه نُهبة لعيون أشباه الحيوانات، وعرضة لأنياب أمثال الوحوش!».

وبأسلوب المنفلوطي المعروف نقرأ حكاية شاب ذهب إلى أوروبا «بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها، وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة». كان بطل القصة شابا نقيا طاهرا متواضعا حكيما ورعا ثم عاد غير ذلك كله بسبب تأثير المدنية الغربية. ورأى الكاتب أن يلازم صديقه هذا على أمل أن يعيده إلى جادة الصواب، إلى أن حدثت داهية الدواهي ومصيبة المصائب عندما صارحه صديقه ذاك بأنه ليس له في الحياة إلا أمل واحد هو أن يغمض عينيه ثم يفتحهما فلا يرى برقعا على وجه امرأة في هذا البلد. لقد تمنى ذلك الصديق أن يكون أول هادم لهذه العادة القديمة التي وقفت سدا دون سعادة الأمة

وارتقائها دهرا طويلا وأن يتم على يديه ما لم يتم على يد أحد غيره من دعاة الحرية وأشياعها، وهو أن تخلع زوجته ذلك الحجاب وتخرج من محبسها فتبرز إلى الرجال وتجالسهم كما تبرز إلى النساء وتجالسهن. لكن الزوجة رفضت خوفا من النساء وخجلا منهن.

والكاتب هنا يتحدث عن الحجاب بمعناه الذي كان شائعا في القرون الماضية، أي الاحتجاب عن الظهور ومخالطة الغرباء، كما ورد في الآية القرآنية الكريمة الموجهة إلى نساء الرسول رضى الله عنهن. والشاب يرى أن النساء المرغمات على الالتزام بذلك الاحتجاب «يعشن في قبور مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة».

ويحاول المنفلوطي أن يثنى الشاب الثائر عن أفكاره خوفا على عرضه، فلما يدافع الشاب عن رأيه بأن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين، يقول الكاتب أن الشرف كلمة لا وجود لها (إلا) في قواميس اللغة ومعاجمها، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها، وأن العفة ما هي إلا لون من ألوان النفس، لا جوهر من جواهرها..!! وهي لا توجد إلا بين البُله الضعفاء والمتكلفين، أما المتعلمون والطلبة والرعاع فكلهم فاسدون. ومن رأى المنفلوطي أن المشكلة الأساسية في فساد الرجال وتطفلهم على النساء. وهو يرى أن المرأة أحوج إلى التهذيب منها إلى العلم، ولا مانع لديه من أن تخرج إلى النور

والهواء من آن لآخر بشرط أن «يرافقها رفيق من الرجال في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفا عليها من الذئاب». والمنفلوطي رغم هجومه الشديد على المتغربين، (المقلدين للغرب) نلمح بين سطوره إعجابا شديدا بأوروبا، حيث العلماء «يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها... والفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها!! والرجل الأوروبي حر طليق يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها... كذلك المرأة الأوروبية في نظر المنفلوطي «جريئة متفتية في كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بنفسها وكرامتها»..

أما المرأة المصرية فيراها المنفلوطي ضعيفة ساذجة لا تستطيع أن تبرز للرجال وتحتفظ بنفسها!! والأُمَّة المصرية بوجه عام ليست أفضل حالا من رجالها ونسائها، فهو يراها «أُمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء إن كان هناك ما يغني.. فلا علماء ولا فلاسفة ولا حتى أدب يعصم الرجل من السقوط، فهو (الرجل) يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارها..!!

وطبيعي أن هذه الصورة السوداوية لمصر وللرجل المصري، في مقابل الصورة الوردية البعيدة عن الواقع للرجل الأوروبي، تفضي بالمنفلوطي إلى اليأس التام، فهو يفارق صديقه حتى لا يقتله الحياء والخجل إن شاهد يوما وجه إحدى نساء بيته! وبعد فراق ثلاث سنوات يكتشف المنفلوطي أن زوجة صديقه قد صارت عاهرة فاجرة!! يتم القبض عليها في مكان مريب، في حال غير صالحة، مع أحد أصدقاء زوجها!! وهكذا أصبح بيت الصديق ماخورا وهو قوادا وزوجته مومسا، لمجرد أنه شجعها على تمزيق الحجاب الذي كانت تعتقل فيه وتخرج إلى النور والهواء، بل هو يشك في أبوته لابنه، وتنتهي حياة ذلك الشاب الذي أراد أن يحرر المرأة نهاية مأساوية فهو يصاب بالحمى نتيجة صدمته في زوجته وندمه الشديد وإحساسه بالذنب لأنه السبب وراء انحرافها وسقوطها. ولا ينسى المنفلوطي أن يصف لنا عذابه الشديد، وهو في النزع الأخير، حتى تدخل عليه زوجته مؤتزرة بإزار أسود وتقبل يده وتؤكد له أنه أبو الطفل وأنها وإن كانت قد دنت من الجريمة لكنها لم ترتكبها وتطلب منه أن يعفو عنها.

وبعد أن يدفن الكاتب صديقه الشاب يحمد الله على أن الأُمة (المصرية) كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده، فاقتحمه، فمات وحيدا.. فنجت (الأمة) بهلاكه!!!.

وهو ما لم يحدث، فبعد سنوات قليلة من كتابته هذا المقال، خرجت الفتيات المصريات إلى المدارس والجامعات، وأصبحت المرأة المصرية اليوم تتبوأ المناصب وتخالط الرجال بل تترأسهم كوزيرة وسفيرة وأستاذة جامعية وعميدة ورئيسة تحرير ...الخ وهذه الميلودراما الساذجة التي تدور في عقول الكثيرين، وصاغها المنفلوطي بأسلوبه البليغ، لا تصمد لنقاش جاد ولا تثبت شيئا، فالزوجة لم ترتكب الجريمة وإن اقتربت منها، بل هي تؤكد على ما ذكره المنفلوطي في البداية وهو أن المشكلة في الرجل، صديق الزوج، فهل كل الرجال ذئاب..؟! وهل يتحتم علينا لكي نبرر عادة قديمة أن نهين كل آبائنا وأعمامنا وأخوالنا وأبنائنا، وكل رجال الأرض قاطبة، ونؤكد على أنهم جميعا بلا استثناء سينقضون على أي امرأة يرونها في أي مكان، فيهتكون عرضها ويغتصبونها..الخ هل نتهم كل الرجال بأنهم بلا أيمان ولا تقوى ولا وازع من ضمير ولا خوف من قوانين أو أعراف؟! هل، من أجل حفنة من المستهترين الفاسدين، نلزم كل امرأة بأن تحتجب تماما عن عيون الغرباء (والنساء الأجانب أيضا)، وتمتنع عن مخالطتهم لأي سبب من الأسباب، حتى تتقي شرورهم..؟! لقد أصدر أجدادنا حكما على جداتنا بأن يلزمن عقر دورهن، وحرموهن من التعلم ومن العمل ومن المشاركة في الحياة العامة بحجة حمايتهن من الذئاب البشرية حتى بداية القرن العشرين، على عكس ما كان يحدث أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، و رغم ذلك تفشت بينهم الخيانات الزوجية وانتشرت كل صنوف الانحلال كما يعترفون في كتاباتهم.

وقد حاولت جماعة الطالبان التي سيطرت على أفغانستان تسع سنوات (١٩٩٣-٢٠٠٢) أن تتجاهل التطور الاجتماعي الذي فرض نفسه على العالم كله، وأعادت إلى الأذهان تلك الفترة المعتمة الطويلة من تاريخ البشرية، فمنعت النساء الأفغانيات من الخروج لأي سبب، التعليم أو العمل أو العلاج، وكانت النتيجة أن تلك الجماعات لُفظت من جميع دول العالم فلم يعترف بها سوى السعودية وباكستان والإمارات، ثم عادت تلك الدول جميعا فسحبت الاعتراف بها، وانهارت دولة الطالبان وتوارت في مزبلة التاريخ بعد أن جلبت على بلادها الاحتلال والهيمنة الأمريكية على كل الدول الإسلامية في المنطقة.

لقد أنكر المنفلوطي على المرأة إنسانيتها ونظر إليها كأنثى فقط، وعاد بها إلى العصر الجاهلي وما زاد عما جاء في كتب السالفين شيئا، رغم أنه عاش بعد عصورهم بألف عام وعاصر بداية التطور الكبير في الحياة مع الاختراعات الغربية مثل الطباعة والتصوير الفوتوغرافي والقطار والهاتف والبرق والسينما..الخ، وحضر افتتاح أول مدرسة للفتيات (السنية). ولا بد أنه قرأ أو سمع عن كتابات زينب فواز وعائشة التيمورية وقاسم أمين وأحمد لطفي السيد والدكتور حسين هيكل، أو قرأ أو تصفح واحدة من المجلات النسائية العديدة التي صدرت في عصره..

ومازالت أقلام كثيرة في يومنا هذا تشن حملة ضارية ضد تحرير المرأة وتهاجم الحجاب لأنها لا ترضى بغير النقاب، وترفض عمل المرأة وحركة المطالبة بحقوقها. ويستشهد هؤلاء بكتاب «الحجاب والسفور في الكتاب والسنة» الذي أصدره الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز مع ثلاثة شيوخ آخرين في عام ١٩٨٦. والشيخ بن باز رحمه الله كان الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والقضاء والدعوة والإرشاد ومفتى المملكة العربية السعودية. وقد ضمن كتابه أربع رسائل لبعض الفقهاء حول مسائل السفور والاختلاط وعمل المرأة.

وقد نشر الكتاب وعلق عليه الدكتور محمد أبو الاسعاد في كتاب بعنوان «عصر الحريم السعودي» (رؤية سعودية ـ أمريكية)[1]. يبدأ د. أبو الاسعاد بعرض الرسالة الأولى للشيخ بن باز عنوانها: «عن الحجاب والسفور»، وفيها يهاجم الشيخ بن باز نزول المرأة للعمل بدعوى تصادمه مع النصوص الشرعية التي تأمر المرأة بالقرار في بيتها ولأنه يؤدى إلى اختلاط النساء بالرجال وبطالة الرجال وخسران الأمة(!)

أما الحجة التي يعطيها بن باز لحرمان المرأة من حقها في التعليم والعمل فهي الآية {وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}، أي أنه يتجاهل ما أجمع عليه كل المفسرين السالفين وهو اختصاص هذه الآية بأمهات النبي وآل البيت وحدهن..!

---

[1] عصر الحريم السعودي، د. محمد أبو الإسعاد. الناشر طيبة للدراسات والنشر. سلسلة قضايا التنوير ١٩٩٤.

والرسالة الثانية في «الكتاب وفريضة النقاب» للشيخ مصطفى أبو مصعب الهنداوي، وهو يرفض الحجاب الذي يسمح بكشف الوجه والكفين ويرى أن الدعوة إليه «إثم خالص وبدعة حديثة من أناس يدعون العلم ويزعمون الاجتهاد ويريدون أن يثبتوا بآرائهم العصرية أنهم أهل لأن ينافسوا الأئمة المجتهدين في الدين ليكون لهم أنصار وأتباع، وهي البداية التي جرت وراءها السفور والتهتك والعري الملعون ثم ما تبع ذلك من الاختلاط في الشوارع والجامعات وميادين العمل». والطريف أن الشيخ الهنداوي يؤيد قول الرافضين للحجاب فيرى مثلهم أن الحديث النبوي القائل «إن المرأة متى ما بلغت المحيض لا يرى منها إلا الوجه والكفان» حديث ضعيف لا يحتج به، وأن خالد بن دريك الذي رواه من المشكوك في أحاديثهم، ويضيف أنه يحتمل أن يكون الحديث ممسوخا. ثم يقول إن المرأة لا تخفي وجهها وكفيها وهي محرمة في الحج والصلاة، لأنه لا يوجد أجانب، وإن وجدوا وجب عليها أن تغطي وجهها وكفيها، وهو بذلك يناقض حديثا صحيحا يقول إن المرأة يجب أن تكشف وجهها وكفيها في الحج. ويتمسك الشيخ بحديث نبوي لم يثبت صحته يقول «المرأة عورة»، ويحتج بأن الإمام ابن تيمية قال: «كل شيء في المرأة عورة حتى ظفرها».

الرسالة الثالثة تتحدث صراحة عن «زي المرأة المسلمة» للدكتور محسن عبد الحميد الذي يوصي بابتكار زي موحد للمسلمات تتوافر فيه شروط يأتي في مقدمتها «استيعاب جميع

البدن، وألا يكون زينة في نفسه وأن يكون صفيقا لا يشف، وأن يكون فضفاضا غير مبخر مطيب، ولا يشبه لباس الرجل ولا لباس الكافرات، وألا يكون لباس شهرة». ثم يعود فيرى أنه لامناص من الاستعانة بالكافرات وذلك باللجوء إلى مجلة «بوردا» العالمية الألمانية للأزياء لتصمم أزياء مختلفة للمسلمات، فيقبل عليها النساء لأنها تزيل عقدة النقص عند النساء والخوف من الاتهام بالتأخر..!!!

والفكرة وإن بدت مثيرة للضحك لبعض الناس، وللبكاء للبعض الآخر، إلا أن الدولة الشيوعية في الصين الشعبية حاولت تطبيقها بالفعل، منذ سنوات عديدة، وأجبرت ملايين النساء الصينيات على ارتداء زي موحد بصرف النظر عن اختلافاتهن في السن أو المنصب أو القومية أو المكانة الاجتماعية. إلا أن ذلك الإجراء العبثي لم يصمد طويلا، ومرت السنوات، وتغيرت أحوال الصين الشعبية، في العقد الأخير من القرن الماضي، ففتحت النوافذ والأبواب، وغيرت سياسات القمع وفرض الرأي الواحد وسمحت بقدر من الانفتاح على العالم. وعندما زرت الصين للمرة الأولى عام ١٩٩٥، وجدت الفتيات يرتدين التي شيرت والجينز، وكذلك الفتيان، واختفى الزي الشيوعي الموحد تماما، وأصبحت المرأة الصينية ترتدي ما تشاء وفقا لظروفها ولذوقها الشخصي.

والرسالة الرابعة عنوانها «فصل الخطاب في المرأة والحجاب» للشيخ أبو بكر الجزائري وهو يحذر من خطورة الدعوة إلى المطالبة بحقوق المرأة، ويصفها بأنها دعوة ماسونية يهودية قصد بها الخروج عن الإسلام (!)، أي أنه يثبت فكرة أنه لا حقوق للمرأة في الإسلام، وهو ظلم فادح للإسلام أول من منح المرأة حقوقها، وأكد على مساواتها الكاملة للرجل. ويؤكد الشيخ الجزائري رفضه التام للحجاب، فلا بديل عن النقاب؛ فمجرد كشف العينين واتصال عين الرجل بالمرأة خروج على الشرع الإسلامي، «فالصب تفضحه العيون، والعين من مراكز الشهوة عند الرجل والمرأة» بنص كلامه. وكما يقول الإمام ابن قيم الجوزيه في كتابه «الجواب الكافي»: إن كل الحوادث مبدؤها من النظرة، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فالنظرة هي رائدة الشهوة ورسولها وحفظها أصل حفظ الفروج.

وعلى عكس الجزائري نجد من يحبذ الحجاب، ويرفض النقاب وهو الأستاذ عبد الحليم أبو شقة[1]، الذي أصدر دراسة جامعة لنصوص القرآن وصحيحي البخاري ومسلم عام ١٩٩١م. وأبو شقة يرى أن «طرز الثياب ليست من الأمور التعبدية التوقيفية بل هي من قضايا المعاملات التي تدور مع علتها

---

[1] عبد الحليم أبو شقة «تحرير المرأة في عصر الرسالة». دراسة جامعة لنصوص القرآن وصحيحي البخاري ومسلم. الناشر: دار القلم. الكويت الطبعة الأولى ١٤١١ هـ. ١٩٩١م. الجزء الرابع لباس المرأة المسلمة وزينتها.

وتحكمها مقاصد الشريعة. كما أنها من أمور العادات التي تختلف باختلاف المكان والزمان. فأي طراز يحقق الستر بشروطه الشرعية ويكون مع الستر مناسبا للمناخ السائد من ناحية ومعينا على يسر الحركة من ناحية أخرى فهو مقبول شرعا»[1].

ينصح بالحجاب ليس لأن هناك نصّاً قرآنياً أو نبوياً قطعي الدلالة والثبوت على وجوبه، ولكن اتقاء للشهوات ودرءا للشبهات.

وفي تفسيره للآية ٦٠ من سورة النور يلفت النظر إلى أنها لا دليل فيها على جواز ستر القواعد من النساء لوجوههن فقط «فهذا إنما يصح لو كان النقاب واجبا على عامة النساء وهو ليس واجبا كما بينا من قبل» ويرى أنها تعني لا حرج على المسنة في أن تخرج إلى الشارع دون خمار وأن تلتقي بالرجال إذا دخلوا عليها بيتها دون خمار (ج٤ ص٧٦).

أما عن التمييز بين المسلمات و(الكافرات)، فالمقصود هنا المشركون الوثنيون وليس اليهود أو المسيحيين، ويذكر أبو شقة حديثا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان النبي يحب موافقة أهل الكتاب، فيما لم يؤمر فيه، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم وكان المشركون يفرقون رؤوسهم فسدل النبي صلى الله عليه وسلم ناصيته ثم فرق بعد» رواه البخاري ومسلم. (أبو شقة ج٤ ص ٢٨٠).

---

[1] أبو شقة ج٤، ص ٢٩.

وعن أبى هريرة: «قال الرسول: جزوا الشوارب واسدلوا اللحى وخالفوا المجوس» رواه مسلم.

ويعتمد عبد الحليم أبو شقة على هذه الأحاديث ليفرض على المرأة المسلمة أن يبدو مظهرها مخالفا للكافرات (الوشيات ؟!) بحيث إذا شوهدت المرأة المسلمة لا تشتبه مع الكافرة، رغم أنه لا ينفي أن تكون قطعة من ملابس المسلمة أو جانب من زينتها فيه وجه مشابهة ! (ج٤ ص ٢٨٠).

ويقع أبو شقة في تناقض واضح عندما يعترف بفساد الدليل الأوحد على وجوب تغطية شعر المرأة مع كشف الوجه واليدين، وهو حديث خالد بن دريك عن عائشة، ورغم ذلك يدافع عنه قائلا: «لا شك في ضعف هذا الحديث، ولكن بعض رجال الحديث يعتمده رغم ذلك لأن هناك ما يقويه من آيات كتاب الله وأحاديث رسوله، فضلا عن مجموعة من الأدلة والقرائن التي تقرر جواز كشف الوجه والكفين». (أبو شقة ج٤ ص ٣١٣).

وفي معرض دفاعه عن الحجاب يعترض أبو شقة على تفسير الطبري لآية الخمار: «قول الطبري (إن الإماء كن يكشفن شعورهن ووجوههن) لا يقتضي حتما ستر الحرائر وجوههن ليتميزن عن الإماء، بل يمكن أن يتميزن بستر الشعر وبعض الوجه فحسب وذلك بإدناء الجلابيب على رؤوسهن وجباههن!!» (ج٤ ص ٣١٤). ولم يحاول أن يسأل نفسه هذا السؤال البديهي: واليوم إذ لم يعد هناك إماء وحرائر وعادت كل

النساء كما أراد لهن الخالق عز وجل وكما قال رسوله: سواسية كأسنان المشط.. فلماذا تميز المسلمة عن بقية نساء العالم بزي فرضه الآشوريون والفرس على نسائهم قبل نزول رسالة الإسلام بمئات السنين، التي حررت الجميع ولم يعد ثمة تمييز بين العربي والعجمي إلا بالتقوى..؟! ألسنا بذلك ندعم ما يشيعه أعداء المسلمين من اتهامات باطلة عديدة؟

من هؤلاء د. سيمون جراي، طبيب أمريكي عمل في مدينة الرياض بالسعودية من ١٩٧٦-٧٨، ألف كتابا بعنوان «أسرار وراء الحجاب» عن تجربته وسط المسلمين يقول فيه «الجنس حاجة بيولوجية (حيوية) يحتاجها الكائن الحي للإحساس باللذة الحسية واستمرار النوع، والجنس في ذات الوقت هو حاجة سيكولوجية (نفسية) لاستكمال شخصيته الإنسانية بالتواصل الوجداني». ويتهم المجتمع السعودي بأنه يعاني من حالة جنون جنسي، ونتيجة لإخفاء النساء عن الرجال جعل من المرأة تجسيدا لمفهوم الجنس في عين الرجل، وصار إذا رآها لا يخطر بباله شيء سوى الجنس.

ويقول هذا الطبيب الأمريكي إن السعودية كانت آخر دولة في العالم تمنع الرق (عام ١٩٦٢) ومازال كثير من فقهائها وأمرائها وأثريائها يرفضون إلغاء الرق سرا. وهم يعتبرون ذلك مخالفا للشريعة الإسلامية التي أباحت التمتع بالإماء. وإن أول مدرسة لتعليم الفتيات بالسعودية أنشئت عام ١٩٦٠ بفضل الأميرة عفت زوجة الملك فيصل. وفي عام ١٩٩٠ طلبت ٤٧ سيدة

ممن حصلن على تعليم عال وشغلن مناصب عليا الحصول على تراخيص قيادة سيارات لكن الحكومة السعودية رفضت وأعلن الشيخ بن باز، مفتى الدولة، أن المرأة المسلمة التي تقود سيارة لا تتبع السلوك الإسلامي القويم بل تعد خارجة على الشرع الإسلامي الحنيف.

ويزعم الدكتور جراي أن الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٩٠-١٩٥٣) تزوج بأكثر من ٣٠٠ سيدة وكان باستمرار يجمع ببين أربع زوجات غير ما ملكت أيمانه من الإماء والسراري، وأنه لم يكن يلتزم بالشرع فقد جمع بين أختين كزوجتين له في وقت واحد من عائلة السديري هما حصاة بنت السديري وأختها سلطانة[1].

وقد تأثر أغلب الفقهاء المحدثين وعلماء الإسلام برأي الشيخ بن باز وأشياعه، حتى في مصر التي نالت فيها المرأة قدرا كبيرا من الاحترام والحرية، وأصبحت بحكم الدستور والقوانين مساوية للرجل في كل الأمور. مازلنا نقرأ ونسمع في الإذاعة ونشاهد على شاشة التليفزيون من يرددون حرفيا كلام الفقهاء القدامى، كأنهم مازالوا يعيشون في القرن الرابع أو السادس الهجري. وفي رد الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي (المفتي في ذلك الوقت) على مقال للمستشار سعيد العشماوي في جريدة الأهرام بتاريخ ١٣/٦/١٩٩٤م ثم نشر بمجلة روز اليوسف بتاريخ ٢٧/٦/١٩٩٤م، يقول الدكتور محمد سيد طنطاوي

---

[1] كتاب «أسرار وراء الحجاب» تأليف د. سيمون جراي.

«إن تخصيص الحجاب (في الآية ٥٣ من سورة الأحزاب) بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم وحدهن ليس صحيحا لأن حكم نساء المؤمنين في ذلك كحكم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لأن المسألة تتعلق بحكم شرعي يدعو إلى مكارم الأخلاق، وما كان كذلك لا مجال معه للتخصيص، ولأن قوله تعالى {ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن} علة عامة، تدل على تعميم الحكم، إذ جميع الرجال والنساء في كل زمان ومكان في حاجة إلى ما هو أطهر للقلوب وأعف للنفوس» إن المفتي يكرر بفتواه هذه قول الحنابلة «المرأة كلها عورة حتى ظفرها»، وإصراره على تعميم الحكم في آية الحجاب على المؤمنات يعني العودة إلى الوراء ألف سنة، وإلى ما سبق وأن قاله المفسرون القدامى وفرضوه على المسلمات قروناً عديدة، بوضع حاجز بين النساء والرجال فلا يرون بعضهم البعض إلا في حالة القرابة، وبأن تمنع المسلمات من الخروج من بيتهن إلا للضرورة القصوى عملا بقوله تعالى: {وقرن في بيوتكن}، واقتداء بزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام. ورأى فضيلة المفتى يفترض أن كل نساء المسلمات قد تزوجن من أنبياء أو رسل، وفي هذا الموقف تناقض شديد مع الذين يريدون عزل النساء عن الرجال إلى الأبد بحجة أن الرجال جميعا ذئاب ضارية لابد من حماية النساء منهم..! ثم أننا لا نجد في آيات القرآن الكريم ما يدعو المسلمات إلى اتخاذ نساء النبي قدوة، بينما سورة الأحزاب الآية ٢١ تفرض ذلك بالنسبة للرسول وحده: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة».

وبالنسبة لآية الجلباب (الأحزاب ٥٩) يستشهد المفتي الأسبق الدكتور سيد طنطاوي بالإمام أبو حيان الذي يرى أن الحجاب فرض على الإماء والحرائر وليس على الحرائر فقط لأن إخراج الإماء من هذا الحكم يحتاج إلى دليل واضح ولا دليل هنا (في الآية)، ونقول ولا دليل أيضا على أي تمييز بين النساء.

ويرى سيادته أنه يجب العمل بحديثي عائشة رغم أنهما من أحاديث الآحاد، لأن هذه الأحاديث يجب اتباعها والعمل بها، وذلك رغم أن أحدهما يجيز كشف الوجه مع إخفاء كل الذراع ماعدا الكفين، والآخر يجيز كشف نصف الذراع، فهل سيفتي فضيلته بجواز كشف ذراع النساء واعتبار النصف كم حلال اعتمادا على حديث عائشة رضي الله عنها..؟!

الفصل الثامن

وآراء ضد الحجاب

ينطلق الرافضون للحجاب من فكرة حرية الفرد في الإسلام ومسئوليته الكاملة عن أفعاله وأقواله وحسابه على نواياه أمام الله سبحانه وتعالى.

كان أول من انتقد عادة فرض الحجاب على المسلمات كافة، رغم أن الله تعالى اختص به أمهات المؤمنين وحدهن، هو القاضي المصري الشاب قاسم أمين في كتابيه تحرير المرأة (١٨٩٩) والمرأة الجديدة (١٩٠١).

وقد أورد قاسم أمين تفسير كلمة الحجاب في أشهر القواميس في ذلك العصر «لاروس» الذي أرجعه إلى عادة عند نساء اليونان، تركها الدين المسيحي عندما دخل البلاد فكن يغطين رؤوسهن إذا خرجن في الطريق في وقت الصلاة. «وبذلك أثبت أن الحجاب عادة لم يستحدثها المسلمون وليست خاصة بهم بل كانت معروفة عند كل الأمم تقريبا ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع وجريا على سنة التقدم والترقي».

ويقول في مقدمة الكتاب «لو أن في الشريعة الإسلامية نصوصا تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب علي اجتناب البحث فيه، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت مضاره في ظاهر الأمر، لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشه، لكننا لا نجد نصا في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها. ولذلك لا نرى مانعا من البحث فيها، بل من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس إلى تغييرها..»[1].

هاجم قاسم أمين النقاب والبرقع على أنهما «ليسا من المشروعات الإسلامية، لا للتعبد ولا للأدب، واعتبرهما مما يزيد في خوف الفتنة»، وتحدث عن الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها، والحظر عليها أن تخالط الرجال، فرأى أنه يختص بنساء النبي وحدهن حسب أسباب نزول الآية وكما فهمه جميع المفسرين بلا استثناء وقوله تعالى «لستن كأحد من النساء» يشير إلى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم، وينبهنا إلى أن في عدم الحجاب حكما ينبغي لنا اعتبارها واحترامها وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الأسوة (ص ٥٢)،

---

[1] قاسم أمين تحرير المرأة ص ٤٥.

ورأى أن فرضه على غير نساء النبي من التعسير الذي ينهى عنه الإسلام بقوله تعالى: {يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} (البقرة ١٨٥)، وقوله تعالى: {ما جعل عليكم في الدين من حرج} (الحج ٧٨).

كذلك رأى قاسم أمين أن «من ألزم لوازم الحجاب أنه يهيئ الذهن في الرجال وفي النساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت»، «وبديهي أن المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر أضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة، فإن عفة هذه قهرية أما عفة الأخرى فهي اختيارية، والفرق كبير بينهما. ولا أدري كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الأقفال وارتفاع الجدران» (ص ٦٠).

أوضح قاسم أمين في تحرير المرأة أنه لا يطالب «برفع الحجاب (الآن) دفعة واحدة، والنساء على ما هن عليه اليوم (نهاية القرن ١٩)، فإن هذا الانقلاب ربما تنشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب، كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي، وإنما الذي أميل إليه هو إعداد نفوس البنات في زمن الصبا إلى هذا التغيير، فيعودن بالتدريج على الاستقلال، ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفي دونه الجسد، ثم يعودن على معاملة الرجال من الأقارب والأجانب، مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول

الآداب تحت ملاحظة أوليائهن. عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار في معاملة الرجال بدون أدنى خطر يترتب على ذلك، اللهم في أحوال مستثناة لا تخلو منها محجبة ولا بادية» (ص ٦٨).

ويعود القاضي قاسم أمين فيكرر ذلك في «المرأة الجديدة» فيتوقع تخفيف الحجاب وذهابه شيئا فشيئا إلى التلاشي. وردا على من يتمسكون بالحجاب لأنه ذكر في القرآن الكريم يقول:

«الأحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق، ووكلت فهم الجزئيات إلى أنظار المكلفين، ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم، على هذا جرى العمل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه وأتباعه» (ص ١١١)، والقواعد الكلية على حسب ما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة هي التي لا تقبل التغيير والتبديل، أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العوائد والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان، وضرب مثلا لذلك بكشف الرأس الذي يعتبره الشرقيون أمرا قبيحا لأنه كان معتبرا في العادة مخلا بالمروءة، بينما الغربيون لا يرون ذلك، ولا علاقة بكل ذلك بالدين وإنما هو تمسك بما كان عليه الآباء، والتزامنا بكل ما وجدنا عليه آباءنا، وعدم الخروج عن الدائرة التي رسموها لأنفسهم، (فيه) قضاء على الأمة الإسلامية بجمود القرائح وتقييد الأرجل وغل الأيدي عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به في سبيل سعادتها، بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال» (ص١١٢).

كتب قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» في نهاية القرن التاسع عشر، وقت أن كانت النساء محرومات من كل الحقوق الإنسانية، محتجزات خلف جدران بيوتهن، لا يطللن على العالم إلا من وراء المشربيات، ولم يكن غرضه من كتاباته التي استغرقت عمره كله سوى الدفاع عن المرأة وإنقاذها من ذلك المعتقل الذي لم يجد له أي مبرر في العقيدة. وهو يضع الحجاب في سياق قضية المرأة عامة، ويراه واحدا من أسباب ونتائج قهر المرأة وحرمانها من حقوقها. وفي معرض الدفاع عن حق المرأة في حياة أفضل وجه نداء للرجال بأن يتحركوا لإنقاذ المرأة، واقتراحا بتأسيس جمعية يدخلها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة التي شرحها، وكان أول من طالب الحكومة بالاهتمام بأمر المرأة: «آن الوقت الذي يجب فيه على الحكومة وعقلاء الأمة وأرباب الأقلام أن يوجهوا التفاتهم إلى حال المرأة المصرية، فإني لا أرى مسألة تمس بحياة الأمة أكثر منها ولا أحق منها بأن تكون موضوعا لنظرهم ومجالا لآرائهم وأفكارهم» (ص ١١٤).

بعدما قوبل كتاب تحرير المرأة بهجوم شديد على قاسم أمين لم يستسلم، وإنما تلاه بكتاب آخر استهل به القرن العشرين (عام ١٩٠١) ودافع عن حرية المرأة بحرارة. وعن الحجاب كتب يقول: «إن إلزام المرأة بالحجاب هو أقسى وأفظع أنواع الاستعباد، ذلك لأن الرجال في أعصُر (عصور) التوحش كانوا يستحوذون على النساء، إما بالشراء كما بينا أو

بالاختطاف. وفي كلتا الحالتين كانوا يعتبرون أنفسهم مالكين نساءهم ملكا تاما وتبع ذلك أن الرجل جرد امرأته عن الصفات الإنسانية وخصصها بوظيفة واحدة وهي أن تمتعه بجسمها، فأقرها في مسكنه، وألزمها بأن تلازمه ولا تخرج منه حتى لا يكون لأحد غيره حظ في أن يتمتع بها ولو بالنظر أو الحديث، شأن المالك الحريص على ملكه الذي يريد أن يستأثر بجميع مزايا المتاع الذي يملكه. ولما كان من المحال أن لا تعرض ضرورة تقضي على المرأة بالخروج من منزلها في بعض الأحيان أراد أن يتبعها بالحجاب حيث سارت فألزمها بستر وجهها إذا خرجت».

«هذا الحجاب الذي قرره الرجل في الأصل على زوجته تعدى بعد ذلك إلى البنات والأمهات والأخوات وإلى عموم النساء، لأن كل امرأة هي زوجة أو مستعدة لأن تكون زوجة».

«فالحجاب هو عوان ذلك الملك القديم، وأثر من آثار تلك الأخلاق المتوحشة التي عاشت بها الإنسانية أجيالا قبل أن تهتدي إلى إدراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها أنثى، كما اهتدت إلى أن تفهم أن سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبدا للأبيض».

وفي موقع آخر يورد مقالة لكاتب وعالم هندي يدعى الأمير علي القاضي ترجمت في مجلة المقتطف في عدديها الصادرين في يونية ويولية ١٨٩٩ يقول فيها «ولابد أن يسأل سائل: هل كان نساء الخلفاء وغيرهن من النساء يبرزن ملتفات بالأكفان، كالنساء الشرقيات في مدن الشرق الآن؟ ويظهر لي

أنهن لم يكن يلبسن غير النقاب يسترن به وجوههن ما تستر نساء الآستانة الآن باليشمك فيخفي غضون الشيخوخة ويظهر جمال الصبا، أما البرقع الشامل للوشاح والنقاب والخمار فلم يشع إلا في أواخر عهد السلاجقة، وأما الاحتجاب بالبردة على ما هو شائع الآن عند مسلمي الهند وغيرها من البلدان فلم يكن معروفا في تلك العصور، والنساء من الطبقات العليا كن يظهرن أمام الرجال غير متبرقعات».

ويقول إن العرب عرفوا استخدم الخصيان في عهد معاوية، آخذين ذلك من الروم، واقتبسوا نظام الحريم في عهد الوليد الأموي الثاني، وأمر المتوكل - نيرون العرب - بفصل النساء عن الرجال في الولائم والحفلات العمومية، ولكن بقي النساء يختلطن بالرجال إلى أواخر المائة السادسة للهجرة وكن يقابلن الزوار ويعقدن مجالس الأنس ويمضين إلى الحرب لابسات الحديد ويساعدن أخوتهن وأزواجهن في الدفاع عن القلاع والمعاقل. ولما اضمحل شأن الخلفاء في أواسط المائة السابعة ومزق التتار شمل الدول العربية قام العلماء يتجادلون في هل الأليق بالنساء أن يظهرن أيديهن أو أقدامهن[1]!

وفي كتابه «مفاهيم خاطئة ألصقوها بالإسلام» يقول خليل عبد الكريم[2]:

---

[1] المرأة الجديدة ص ١٩٢.

[2] محام شرعي وكاتب إسلامي معروف. من مواليد أسوان عام ١٩٥١. تخرج في كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً). اعتقل على ذمة جماعة الإخوان

«إن عادة عزل النساء عند المسلمين لم تظهر إلا في بداية الفتوحات الإسلامية لأراضى الفرس فقد كان المسلمون يتمتعون بقوة الإيمان والتقوى والصلاح ولكن اختلاط العباسيين بالفرس أدى إلى ظهور الحجاب».

أما عن الزي الإسلامي فينفي أن هناك نصوصاً تفرض زيا بعينه على المسلمات، وحتى اللون الأبيض الذي تحرص عليه بعض المحجبات فقد حض الرسول المسلمين على ارتداء الملابس البيضاء في حالتي دخول المسجد ودخول القبر ويروى عنه أنه قال: «إن أحسن ما رزقكم به الله في قبوركم ومساجدكم البياض».

ويقول خليل عبد الكريم أنه لا حظر على المسلم في أن يرتدي ما يعجبه من أزياء، وقد ثبت في كتب السنة الصحيحة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ارتدى كل أنواع الملابس التي كانت متاحة في عصره من ألوان متعددة، وأنه لبس كل أغطية الرأس في زمانه كالعمامة والقلنسوة والخوذة..الخ ولم يثبت أنه لبس الطاقية الشبكية التي يتمسك بها أعضاء الجماعات الدينية اليوم. وفي زمن نزول الرسالة كانت الملابس إحدى علامات التفاخر بين الناس (كما هي الآن) وكانت من علامات الثراء والمكانة الاجتماعية السامية إطالة الأثواب، لذا حظر

المسلمين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٥. شغل منصب نائب مجلس إدارة الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية فرع مسجد الساحة لمدة اثني عشر عاماً محام وعضو الأمانة العامة لحزب التجمع.

الرسول من إطالة الثياب بغرض التفاخر والخيلاء فقال: «من جر إزاره من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[1]، ولكن ليس هناك حظر على الاهتمام بالمظهر، قال تعالى «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده».

ويعارض خليل عبد الكريم عودة النقاب حيث لا سند له من قرآن أو سنة، ويقول: أتت صحابية إلى الرسول وهي تصيح: يا رسول الله النار النار. فقام إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما نجواك؟ فأخبرته بأمرها وهي منتقبة فقال: يا أمة الله أسفري فإن الأسفار من الإسلام وأن النقاب من الفجور.

فالسفور هو الأصل في الإسلام، وبعض نساء المسلمين كن يكشفن وجوههن وكانت من بينهن عائشة بنت طلحة حفيدة أبي بكر وبنت أخت كل من عائشة رضي الله عنها وأسماء (ذات النطاقين).

ويتساءل خليل عبد الكريم: إذا كانت الحجة هي التمسك بالنصوص دون نظر إلى أسباب نزولها وملابسات نزولها والبيئات التي وجدت فيها والأفراد الذين خاطبتهم والجماعات التي توجهت إليها، فلماذا إذن لا ينهي السلفيون المحدثون الناس عن استعمال الأدوية التي تباع في الصيدليات ويأمرونهم بالتداوي بالحجامة والسعوط والرقية والحناء والقسط البحري

---

[1] ورد في الصحيحين عن أبي هريرة وابن عمر.

والزيت والسنا والسنوت وإلية الشاة الأعرابية، مع أن هناك نصوصاً صريحة آمرة تأمر بالتداوي بها في حين أن سلامة المجتمعات لا تقل خطورة وأهمية عن سلامة أبدان الأفراد[1].

وأخيراً يقول: «إنه من البديهي أن أهل كل جيل تواجههم نوازل جديدة وسوف تجد في المستقبل وقائع لم تكن في الماضي وهكذا لأن نهر الحياة مستمر في الجريان لا يتوقف. والنظر إلى الخلف والانكفاء على الماضي جمود ليس في صالح الشريعة ولا هو في صالح من شرعت لهم ولكن ما الحيلة وقد درج الإسلاميون على ذلك ويفضلون النقل على العقل مع أن الإسلام أعلى من شأنه ودعا إلى إعماله».

ومن أقوى المعارضين للحجاب رئيس محكمة الاستئناف الأسبق المستشار محمد سعيد العشماوي الذي أصدر منذ سنوات كتابا بعنوان «حقيقة الحجاب وحجية الحديث»[2].

والمؤلف مفكر معروف وله العديد من الدراسات القيمة في أمور الفقه والشريعة التي تدرس كمناهج بالجامعات الغربية، وهو يرفض المنهج التقليدي في تفسير القرآن الكريم والاستدلال بآياته، ويرى أنه المنهج الذي اتبعه المتطرفون والإرهابيون، ويؤدي إلى تفسير آيات القرآن الكريم على غير ما أراد التنزيل وإعمالها في غير الأغراض التي تنزلت بسببها. والمشكلة التي

---

[1] خليل عبد الكريم في كتابه مفاهيم خاطئة ألصقوها بالإسلام ص ٦٤.

[2] المستشار محمد سعيد العشماوي «حقيقة الحجاب وحجية الحديث» الطبعة الثانية - الكتاب الذهبي - مؤسسة روز اليوسف ٢٠٠٢.

يواجها الباحث المدقق هي في الرفض المسبق من القارئ أو السامع لقبول الرأي الآخر أو السماح بأي كلمة تهدد فكره المغلوط أو تقوض رأيه المخطئ أو تفكك حماسته للأوهام. وهو يرى أن الزي والملبس من شؤون الحياة التي تتشكل وفقا للأعراف وتتحدد طبقا للتقاليد ولا تتصل بالدين أو تتعلق بالشريعة إلا في ضرورة أن تلتزم المرأة (والرجل) الاحتشام والتعفف والتطهر. (ص ٨٠) ومن رأيه أن الحجاب ـ بالمفهوم الدارج حاليا ـ شعار سياسي فرضته الجماعات الدينية لتظهر به مدى انتشارها وليس فرضا دينيا ورد على سبيل الجزم والقطع واليقين والدوام، في القرآن الكريم أو في السنة النبوية ـ فرضته بالإكراه والإعنات جماعات الإسلام السياسي على النساء كشارة يظهرون بها انتشار نفوذهم وامتداد نشاطهم وازدياد اتباعهم.

وهو يحذر من إصرار البعض على إشاعة أن الحجاب ثابت بالكتاب والسنة وبالإجماع وتكرار مقولة أنه من المعلوم من الدين بالضرورة، وبذلك يتهمون بالكفر من يخالفهم في مسألة من مسائل الفروع المختلف عليها ولا تحديد بشأنها، فهم بذلك يحرضون الجماعات المتطرفة على ارتكاب جرائمهم على أساس أن من ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة يتهم بالإلحاد ويمكن تطبيق عقوبة الردة عليه.

وإذا كان المطالبون بعودة الحجاب يعتمدون في فتاواهم على سورة النور الآية ٣١ وسورة الأحزاب الآية ٥٣ فهو يرد عليهم بقوله: إذا كانت القاعدة في علم أصول الفقه أن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما، فإن وجد الحكم وجدت العلة، وإذا انتفت العلة انتفى (أي رفع) الحكم؛ فإن علة الحكم المذكور في الآيات - وهي التمييز بين الحرائر والإماء - قد انتفت لعدم وجود إماء (جواري) في العصر الحالي، وانتفاء ضرورة قيام تمييز بينهما، ولعدم خروج المؤمنات إلى الخلاء للتبرز وإيذاء الرجال لهن. ونتيجة لانتفاء علة الحكم فإن الحكم نفسه ينتفي (أي يرتفع) فلا يكون واجب التطبيق شرعا.

وعن حديث خالد بن دريك عن عائشة رضى الله عنها «أن الرسول قال للسيدة أسماء إن المرأة متى ما بلغت المحيض لا يصلح أن يرى منها سوى هذا وسوى هذا، وأشار إلى الوجه والكفين» يثبت المستشار سعيد العشماوي أن هذا الحديث يتناقض مع حديث آخر عن عائشة أيضا: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت (بلغت) أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى هاهنا وقبض على نصف ذراع» والحديثان من أحاديث الآحاد لا الأحاديث المجمع عليها أي المتواترة أو المشهورة.. والفارق بين الحديثين كبير فأحدهما يتعلق بالأصلح أي الأفضل في ظروف اجتماعية معينة، والثاني يدخل في نطاق الحكم الشرعي لأنه يتحدث عن الحلال والحرام..

ويرى بعض الفقهاء انه فيما صدر عن الرسول حتى من تشريعات ما يفيد أنه تشريع زمني صدر لعلة وقتية روعيت فيه ظروف العصر ولمصلحة خاصة قد تتغير على مر الأيام، ومنها على سبيل المثال حديث «أخفوا الشوارب واطلقوا اللحى» للتمييز بين المؤمنين والكافرين في ذلك الوقت كتمييز وقتي اقتضته ظروف الصراع بين المسلمين والوثنيين.

ويرى المستشار سعيد العشماوي أن الزي والملبس من شئون الحياة التي تتشكل وفقا للأعراف وتتحدد طبقا للتقاليد ولا تتصل بالدين أو تتعلق بالشريعة إلا في ضرورة أن تلتزم المرأة (والرجل) الاحتشام والتعفف والتطهر. (ص ٨٠).

ويتساءل سعيد العشماوي: ما هو المقصود بإجماع الفقهاء: هل المقصود إجماع الصحابة وحدهم كما يرى ابن حنبل (ويتبعه الوهابيون الذين يرفضون مبدأ الإجماع عموما) أم أهل المدينة وحدهم كما يرى المالكية، أم أهل الكوفة والبصرة (الأمصار)، وهل هو إجماع أهل السنة أم أهل الشيعة، أم إجماعهما معا..!

وفي مقال بعنوان «شعر المرأة ليس عورة» أورد بحثا عن الشعر في الحضارات القديمة قال فيه إن قدماء المصريين نشأ لديهم اعتقاد بأن شعر الإنسان هو مظهر القوة ورمز الافتخار، ولذلك كان الكهنة يحلقون رؤوسهم تماما، وكان الرجال يغطون رؤوسهم والنساء تضعن الباروكة. وقد أخذ موسى عليه السلام بفكر وحضارة المصريين، فأمر أتباعه بتغطية رؤوسهم في الصلاة، وكذلك فعل بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس

وتسربت الفكرة إلى أنحاء العالم فنرى اليوم الكهنة البوذيين والهندوسيين يحلقون شعر رؤوسهم. وفي أيام النبي (ص) كان الرجال المسلمون يضعون الطاقية عند الصلاة والنساء يضعن الخمار، وهناك حديث للرسول «لا تقبل صلاة الحائض (المرأة البالغ) إلا بخمار» أخرجه أبو داوود وابن حنبل والترمذي وابن ماجه. ويرى المستشار سعيد العشماوي أن هذا الحديث يضعف الحديثين السابقين عن الوجه والكفين أو الذراعين: «فلو أن الأصل أن تضع المرأة غطاء على رأسها عموما، لما كانت ثمة وصية ـ ولا مناسبة ـ لأن يطلب منها وضع خمار على رأسها أثناء الصلاة. فحديث الخمار يفيد أن المرأة لم تكن دائما وأصلا تضع على رأسها، كما وأن الحديث يوصي بان تضع خمارا على رأسها (لتغطى شعرها) وقت الصلاة فقط، ويمكن اعتبار آية الخمار وحديث الخمار متكاملين معا، بحيث يكون المعنى أن على المرأة البالغ أن تضع خمارا على رأسها وقت الصلاة (عملا بالحديث) وأن تضرب بالخمار على جيبها حتى لا يظهر صدرها (عملا بالآية)، وبذلك يزول أي تعارض بين الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن الرسول.. (ص ٧٦).

«خلاصة الخلاصة أن شعر المرأة ليس عورة أبدا، والذي يقول بغير ذلك يفرض من عنده ما لم يفرضه الدين، ويلزم الناس ما لا ينبغي أن يلتزموا به، ويغير ويبدل من أحكام الدين لجهل شخصي أو لمصلحة سياسية أو لأهداف نفعية». (ص ٨٠) وإذا كان الفقهاء قد رأوا في السابق أن شعر المرأة عورة لا بد من تغطيتها فإنه يمكن للمسلمين في العصر الحالي ألا يعتبروه

عورة ـ مادام لا يوجد نص في القرآن أو السنة قطعي بذلك ـ وأن يروا العفة في ذات المرأة الطاهرة وضمير الفتاة النقي وقلب الأنثى السليم، لا في مجرد وضع زي أو لبس أو رداء..

وفي كتابه «المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد لعلماء»[1]، يقول المفكر الإسلامي جمال البنا:

«قلما نجد من القضايا ما يتلبس الباطل بالحق، وما تحل الظنون فيه محل اليقين، وما تغلب الأهواء والأمزجة الحقيقة والموضوع، مثل هذه القضية» (ص ٢٦)، ومن رأيه أن قضية الزي والاختلاط ليست قضية نص قرآني، ولكنها قضية تشديد و«مزاج» ذاتي ترسب حتى أخذ شكل التقليد العام الذي يتلبس بالدين ويفرض زيا معينا، ويمنع الاختلاط الذي يسمح به الدين نفسه. (ص ٣١)، و«إذا كانت المرأة في الجاهلية تختمر لتستر شعرها، وإذا كان ثوبها طويلا سابغا، فإن هذا كله لم يكن له أية علاقة بعبادة وإنما لأن هذه الصفات هي التي يفترض أن تكون في الثياب لتكون عملية صالحة» وأن «قضية الزي كانت قضية مدنية عملية تخضع لما يفترض أن تخضع له الملابس لكي تكون صالحة، دون أن يكون لها بعد تعبدي»، وهي ليست من مسائل العقيدة التي لا مساس بها ولا تعديل فيها، ولكنها من باب الآداب التي تخضع للأعراف والعادات والتطورات، ومع أنها هامة فلا يجوز تضخيم أهميتها لأن ذلك سيخل بالأولويات وسيتم على حساب جوانب أخرى».

---

[1] جمال البنا: المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد العلماء. الناشر دار الفكر الإسلامي.

ويذكر جمال البنا أن الحجاب في مضمون القرآن ليس نقابا أو حجابا، ولكنه باب أو ستر يحجب من في الداخل عمن في الخارج، ويفرض على الداخل الاستئذان «فمعظم العرب وقت ظهور الإسلام كانوا يعيشون في خيام لا أبواب لها، ولم تكن حجرات الرسول صلى لله عليه وسلم، حيث تأوي زوجاته، لها أبواب باستثناء غرفة عائشة في بعض الأقوال، وإنما كان عليها ستر[1] من شعر. وكان البر والفاجر، حسب تعبير عمر بن الخطاب، يدخلون على الرسول بلا استئذان حتى وهو مع زوجاته.

وقد أورد جمال البنا في الهامش واقعة ذكرت في كتب السيرة النبوية، تصور الموقف خير تصوير، وهي واقعة اقتحام شخص يدعى عيينة بن حصن على الرسول دون استئذان، فلما عاتبه الرسول قائلا: وأين الإذن يا عيينة؟! رد قائلا إنه لم يستأذن أبدا في حياته، وهذا الرجل كان أمير قومه! وكان الرسول يسميه: الأحمق المطاع. ويقول البنا إنه يمكن اعتبار تعبير «إلا ما ظهر منها» كل ما لم يأمر القرآن بستره، وهو لم يأمر صراحة إلا بستر فتحة الصدر وإدناء الثوب. (ص٣٠)، وكانت المرأة في الجاهلية ترخي خمارها على ظهرها، فتظل فتحة الجيب (الصدر)، وكانت عادة واسعة لأنها تلبس منها هذا الثوب، عارية حتى تظهر منها «جذوع الثديين»..

---

[1] الستر: جمع ستارة.

أما الدكتور محمود سلام زناتي[1] فقد أتيحت له الفرصة لدراسة نظم العرب القبلية المعاصرة، وقام بدراسة تاريخية علمية قيمة استغرقت منه سنوات طويلة، نشرها أخيرا، أثبت فيها أن الحجاب والنقاب عادتان مأخوذتان عن الآشوريين ثم انتقلت منهم بعد ذلك لليونان وللفرس والعرب وغيرهم من الحضارات المحيطة بهم.

وتبين له أن عادة السفور والاختلاط بين الجنسين مازالت منتشرة حتى وقتنا الحاضر، لدى كثير من القبائل في شبه الجزيرة العربية، لاسيما المناطق البدوية والزراعية منها، على خلاف الحال بالنسبة للمجتمعات المدنية التي تبنت النقاب والفصل بين الجنسين تحت تأثير دعوة رجال الدين المسلمين، أو ربما منذ عصر سالف على الإسلام تحت تأثير الشعوب المجاورة (ص ٨). ويرى الدكتور زناتي أن النساء العربيات لم يحتجبن عن الظهور و لم يمتنعن عن مخالطة الرجال في الجاهلية أو عصر النبوة والخلفاء الراشدين ولا في الدولة الأموية في البادية وفي مكة والمدينة والمدن الجديدة كالبصرة والكوفة. الخ. وفي كتابه يورد العديد من القصص المأخوذة من التاريخ الإسلامي لنساء عربيات كن يستقبلن ضيوفهن وضيوف أزواجهن وأخوتهن وكن يفدن إلى سوق عكاظ وغيرها ويشاركن

---

[1] أستاذ قانون وعميد لكلية حقوق أسيوط لمدة ١٢ عاماً متصلة كما كان نائباً لرئيس جامعة أسيوط واشتغل بالتدريس في أكثر من سبع جامعات مصرية وعربية.

في المعارك والحروب، ويذهبن إلى المساجد ومن النساء من كانت تستقبل خطيبها وتحادثه وتختبره لتتبين شخصيته وتتعرف على فطنته وذكائه وتقف على أخلاقه وطباعه، وكانت تجير اللائذ بها، وتخرج للنزهة خارج المدينة. ويستشهد الكاتب بقول الجاحظ في كتابه «القيان» لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي (ص) خاصة.. ثم كانت الشريفات من النساء يقعدن للرجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عارا في الجاهلية ولا حراما في الإسلام.

وأما بالنسبة إلى دمشق، عاصمة الأمويين، فهو يرجح أن سكانها كانوا يفصلون بين الجنسين قبل الإسلام ويفرضون الحجاب على نسائهم، وذلك أخذا عن اليونان الذين أخضعوا الشام لحكمهم حقبة من الدهر. والعرب الوافدون بعد الإسلام، وكانوا قلة بالنسبة للسكان الأصليين، احترموا تلك العادة واقتبسوها عن أهل الشام، وأن خلفاء بنى أمية وأشرافهم الذين فرضوا الحجاب على نسائهم قد أخذوها عنهم، ولكن كانت هناك بعض الاستثناءات، ثم ترتب على استقرار عادة الحجاب أن انقطعت صلة المؤرخين بنساء المتأخرين من خلفاء بني أمية، إذ أصبحن يعشن حياة خاصة على هامش المجتمع الذي يحيط بهن.

أما في العصر العباسي فقد بدأ نظام الحجاب يفرز جذوره وأصبح تقليدا متبعا ونظاما عاما يخشى الناس الخروج عليه، رغم أنه لم يصدر به أمر من خليفة أو حاكم، لذلك بدأت الحياة الاجتماعية تتشكل على أساس جديد وتظهر آداب اجتماعية وقيم أخلاقية جديدة تناسب الوضع الجديد. فاختفت النساء عن الأنظار ولم يعد صاحب البيت يدعو زوجته لمجالسة ضيوفه، وأصبحت الحواجز تقام بين الجنسين للحيلولة دون اتصالهما في الأماكن العامة، وأصبحت المرأة التي تنزوي عن الأنظار وتبتعد حتى عن ساحة الدار تمتدح، وتحولت المرأة من إنسانة مشاركة في الحياة العامة إلى أنثى تعيش على هامش الحياة.

وهو يرى أن كل الآراء التي قيلت بصدد تفسير آيتي الحجاب لا تنبع من الآيتين نفسيهما، وهذا يفسر الانقسام حولهما بين المفسرين، فمن هيأته ظروف نشأته وأصله وثقافته ومزاجه إلى الترحيب بالدعوة إلى الحجاب فسر هما تفسيرا يلائم هذه الدعوة، والعكس صحيح. ومن رأيه أن الزمن لم يكن في صالح أنصار اختلاط الجنسين وأن الظروف جميعها كانت تلعب لصالح أنصار الحجاب، وقد انعكس ذلك على فتاوى المفسرين والفقهاء فتسابقوا نحو وضع القيود الثقيلة على المرأة والحد من حريتها والتضييق عليها «حتى وصلوا إلى نتائج ينفر منها الذوق، وتشمئز منها العدالة والإنسانية، وتنبو عنها الشهامة والمروءة» وأورد على ذلك العديد من الأمثلة والفتاوى

التي انساق إليها بعض الفقهاء معتمدين على استدلالات فاسدة ومغالطات واضحة وتفسيرات مغرضة للآيات القرآنية الكريمة لتبرير الحجاب وفرض الصبغة الدينية عليه[1].

ويعزو الدكتور محمود زناتي المعارضة الشديدة التي تلقاها من جانب رجال الدين المحدثين حول اختلاط الجنسين إلى أن معظم هؤلاء قد استمد ثقافته و تكوينه العقلي من مؤلفات الفقهاء القدامى الذين نشأوا على نظام حجاب المرأة الذي استقر لقرون طويلة في المجتمعات الإسلامية، واعتادوا على تبريره وتأييده. والخلاصة كما يراها هي «أن اختلاط الجنسين.. كان عادة عربية أصيلة لم يتعرض لها الإسلام بتحريم أو إلغاء. وعودة العرب إلى اختلاط الجنسين ليس سوى وضع للأمور في نصابها بعد فترة انحراف، لا يغير من معنى الانحراف فيها أنها دامت قرونا طويلة»[2].

كل ما سلف من آراء صدرت عن رجال أنعم الله عليهم بنعمة العقل، ففضلوه عن النقل في تفسيرهم لآيات القرآن الكريم وتعرضهم لأحاديث الرسول الكريم مسترشدين بسنة نبيهم الذي قال «قل الحق وإن كان مرا» و«دين المرء عقله ومن لا عقل له لا دين له».

---

[1] قصة السفور والحجاب ص ١٣٨.

[2] المرجع السابق ص ١٤٥.

رجال أصابهم الغم من الحال المتدني الذي وصلت إليه كل الشعوب الإسلامية، على اختلاف أجناسها ومواقعها الجغرافية وحالتها الاقتصادية. رجال أحبوا عقيدتهم وآتوا بما أنزل الله على رسوله المصطفى خاتم الأنبياء، ورفضوا أن يخلطوا بها آراء وأفكار رجال لا قداسة لهم، فسروا العقيدة وفق مفاهيم عصورهم، وعلى حسب ما نشأوا وتعودوا. رجال كرروا صيحة الفقهاء بعد عصر التابعين (للصحابة): هم رجال ونحن رجال.

أين إذن موقف المرأة من تلك القضية..؟!

أخيرا عثرت على كتاب حول الحجاب لكاتبة لبنانية[1] هي نظيرة زين الدين الحلبي (١٨٠٨-١٩٧٦)

تلقت العلم عن والدها الشيخ سعيد زين الدين، الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف في لبنان، وتزوجت الأستاذ شفيق الحلبي الذي كان رئيسا لمحكمة التمييز وكان له في الحقل الوطني مواقف مشرفة ومعروفة.

اعترفت نظيرة بتأثير والدها عليها وتفاخرت بأنها لم تكتب ما كتبت فرارا من سجن الحجاب، فقد حررها منه والدها «الذي عد سجني منافيا عدل الله، ومصلحة العيلة والمجتمع، ووثق بشرف نفسي وأدبها، فأرسلني سافرة إلى الحياة والنور. ولدى تحكيمي العقل رجحت ما رأى ففعلت».

---

[1] «السفور والحجاب» نظيرة زين الدين.. مراجعة وتقديم د. بثينة شعبان. دار المدى للثقافة والنشر. الطبعة الثانية ١٩٩٨.

وتقول الكاتبة إنها اطلعت على تفاسير البيضاوي والنسفي والخازن والطبري وغيرهم ولكنها رجحت ما جاء في كتاب الله والسنة اللذين درستهما دراسة وافية. كذلك اطلعت على كتب التاريخ الاجتماعي مثل الأغاني للأصفهاني ومقدمة ابن خلدون والأتليدي وغيرهم. والكتاب يكشف تأثير والدها الكبير عليها، إن لم يكن هو الكاتب الأصلي له، فقد نشرت كتابها الذي أثار ضجة وجدل ومناقشات واسعة عربيا وإسلاميا، عام ١٩٢٨، أي قبيل أن تبلغ العشرين من عمرها. وتقول في سبب كتابتها لذلك الكتاب أن الثورة العربية ضد الانتداب الفرنسي كانت في أوجها، وقد أثارها حرمان النساء من حريتهن ومنعهن الخروج دون نقاب، رغم أنهن اشتركن في المظاهرات التي تندد بالاستعمار، وأرادت أن تلقي محاضرة «فتناولت القلم لأظهر في محاضرة موجزة ما في النفس من ألم وإذا بقلمي يمشي إثر نفسي وإذا بنفسي المتألمة تطلب المزيد في البيان... فأضحت المحاضرة محاضرات إضافية، يضيق المتكلم عن إلقائها ذرعا، والمخاطب عن تلقيها سمعا».

وتعترف نظيرة زين الدين بأنها قرأت كتابي قاسم أمين، وتأثرت بهما واستشهدت بأقوال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحي الدين بن عربي وغيرهم، وتشيد في أكثر من موقع بشجاعة نساء مصر (في عصرها) اللاتي تخلصن من الحجاب، ورجال مصر الذين شجعوهن على ذلك، مثل أمير الشعراء أحمد شوقي الذي نظم قصيدة في تحية السيدات السافرات،

قال فيها:

قــم حــي هــذي النــيرات — حــي الحســان الخــيرات

واخفــض جبينــك هيبــة — للخـــرد المتحضـــرات

مصـــر تجـــدد مجدهـــا — بنســـائها المتجـــددات

وقصيدة احمد فارس الشدياق في هجاء النقاب:

لا يحسب الغر البراقع للنسا — منعا لهن عن التمادي في الهوى

إن السفينة إنما تجرى إذا — وضع الشراع لها، على حكم الهوى

وفي عام ١٩٢٩ أصدرت كتابها الثاني «الفتاة والشيوخ» الذي قالت فيه «أجل انه كما للمرأة أن تشترك في الحكم الشعبي، آن لها أن تشترك في الاجتهاد الشرعي تفسيرا وتأويلا. بل إنها أولى من الرجل بتفسير الآيات القائم فيها واجبها وحقها لأن صاحب الحق والواجب أهدى إليهما من غيره سبيلا»، وتقول مسترشدة بالآية الكريمة «لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي» البقرة ٢٥٦ «إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يُسمح له بأن يراقب أعمال الناس، فكيف منح بعض المسلمين أنفسهم هذا الحق وأن الإسلام هو دين الحرية والمسلمين ليسوا مسؤولين إلا أمام الله».

وتعلن نظيرة زين الدين أن مبدأها الحرية «وإنما أنا مبشرة وداعية مع من بشر بالحرية على أنواعها ودعا إليها، إني أرى الحرية روح النهضة في الأمة الإسلامية، وأعدها ركن الرقي والسعادة في الهيئة الاجتماعية. إني أريدها محيطة بالعالم كحلقات من نور، مرتبطة بعضها بالبعض الآخر، لا ينقص منها حلقة.. و(للمسلم) أن يتخذ ملبسا لرأسه ما يراه نافعا لائقا، وليجل الدين عن أن يتخذ شكل الملابس، وسيلة للطعن في إيمان اللابس».

«لا تبحث عن الدين يا سيدي في مثل هذه الأمور، بل ابحث إن شئت عن العادة آفة الشرق، وآفة العقل، وآفة الدين، تلك التي جعلت الشرقيين يهتمون دائما للملابس والظواهر، ولا يعبأون بمكنونات القلوب وللسرائر، تلك التي عودتهم أن يقيدوا الحركات الجسدية ويهملوا التربية الروحية، ناسين أن الروح جوهر والجسد عرض، وأن الأمر بيد الروح لا بيد الجسد»... وتدافع نظيرة عن حق نساء زمانها في سفر وجوههن قائلة «إن الوجه مرآة الروح» وأنه لا سند من قرآن كريم أو سنة يوجب إخفاء وجه المرأة. كذلك تطالب بحق المرأة في التعلم لكي تعقل آيات الله البينات، ولكي ترتفع منزلتها بالعلم الذي هو نعمة الله على الإنسان.

وترد بطلاقة على الشيوخ الذين كانوا يعارضون تعليم المرأة.

ومن رأي كاتبة: السفور والحجاب «أن غطاء النساء وحجابهن مبنى على حكمة إخفاء المال والجواهر، بالنظر إلى الأحوال الخطرة التي اضطر فيها الناس إلى إخفاء أموالهم وجواهرهم ونسائهم ومعتقداتهم خوفا من اعتداء الأشرار وتسلط المستبدين. وترى أن النقاب يُفسد النساء، وأن الفتنة اليوم في النقاب وليست في السفور، وأن الرجال لا يسترون وجوه النساء احترازا من الإثم، وأنهم يعلمون أن صيانتهن ليست في نقابهن، ولكنهم يريدون تحت هذا الستار دوام استعبادهن، محرومات من كل حق كخادمات لهم كيف شاؤوا.

«وقبل الإسلام كانت النساء العربيات عبدة الأصنام يرتدين البراقع ويتنقبن وقد ذكر ذلك في كثير من الأشعار القديمة، ورغم ذلك قال المفسرون إنهن كن متبذلات إذن لا خير في نقابهن».

وتورد نظيرة رأيا لفقيه معروف في زمانها هو الشيخ مصطفى الغلاييني الذي كتب في ١٩٠٨ كتابا عنوانه «الإسلام روح المدنية» يرد فيه على افتراءات اللورد كرومر، وقد اعترف فيه بأن «الحجاب الحاضر مما ينهى عنه الشرع الإسلامي لأنه يغرر الأغرار ويستميل الأشرار»[1]. وقال «إن ما نشأ بعد الصدر الأول من ستر الوجه واليدين فليس مما أمرت به الشريعة، وإن من التحجب المطلق، الذي هو غير شرعي، ضررا لا ينكر».

---

[1] الشيخ مصطفى الغلاييني في «الإسلام روح المدنية» ١٩٠٨ ص ٢١٦.

ورغم ذلك أيد الغلاييني سيطرة الرجل على المرأة بدعوى أنه الأقوى بدنيا والأوسع عقلا! «وعليه فالمرأة في طور الخنوع للرجل أنعم بالا وأرفه عيشا وأسمى مقاما، فإن أراد الجنس اللطيف أن يكون محتقرا فليطالب بالحرية والاستقلال..!!!»

وترد عليه بقولها «يا سيدي الشيخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل الإيمان أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك» وقال عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام «لا تفعل بالناس مالا تريد أن يفعل الناس بك» فهل تحجيب النساء.. من الحالات التي تحبها لنفسك، وتريد أن يفعلها بك نساؤك»..؟

«اتركوا النساء على البسيط يا سادتي، اتركوا عقولهن وأفكارهن تشتغل بالعلم وبالأمور النافعة، وبالتفكير في ما عملن وفي ما يجب أن يعملن لخيرهن، وخير عيالهن وخير بلادهن وخير البشر، افتكروا قليلا في تربية أرواحهن، ولا تحصروا كل افتكاركم في شكل ملبسهن.

{والله جعل لكم مما خلق ظلالا، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تَسلمون قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق}.

وتقول «إن الفقهاء قالوا أن جميع المطعومات والمشروبات والملبوسات وأنواع التجملات حلال إلا ما خصه الشرع بدليل في التحريم، لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة، إلا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل مفصل».

ثم توجه خطابها إلى الشيخ: «يا سيدي الشيخ أتخاف على القطيع إذا اشترك وغيره في الملبس أن يضيع؟!

الرعاة يسِمون الغنم، ويشرمون آذان المعزى لتُعرف، فهل تريد أن تسم الناس بوسم اللباس؟!»

وفي تفسير آيات القرآن الخاصة باللباس ترى أن «العبرة للمعاني لا للألفاظ والمباني.. فما لفظ الجلباب أو لفظ الجيب إلا لفظ اتفاقي جاء في الآية لأنه زي ذلك الزمان؟؟» (ص ١٨١).

ثم تتوجه بخطابها إلى نساء عصرها: «إذا خفت يا سيدتي من الفتنة، فارمي نقابك واسفري، فقد أصبحت الفتنة وأمست في النقاب لا في السفور»[1].

ومما ذكره الخازن عن أنس بن مالك، أن جارية متشبهة بالحرائر مرت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لها: يا لكاع أتتشبهين بالحرائر؟ وعلاها بالدرة أي بالسوط منعا لها عن ذلك. تقول نظيرة «يا ليت سيدنا عمر رضي الله عنه علا بالدرة الرجال، الذين كانوا يتعرضون للنساء ليلا، لما كن يخرجن للغيطان مضطرات، بدلا من أنه علا (ضرب) بها تلك المسكينة، التي أرادت أن تحفظ نفسها بشكل ملبسها من التعرض، ولعل في ذلك حكمة تخفى على مثلي.

---

[1] السفور والحجاب ص ١٩٦.

وفي بحث طويل تتبعت نظيرة زين الدين أقوال المفسرين وتناقضاتهم حول تفسير آيات الله تعالى ومعاني ألفاظها مثل الجيوب والجلباب والزينة الظاهرة، وتعلق على تلك الأقوال الكثيرة بقولها «واحسرتاه على النساء! إن جباههن وعيونهن وآذانهن ووجوههن وأعناقهن وأذرعهن وأكفهن فضلا عن عقولهن ألعوبة المفسرين والرواة وهن يُلعن إذا تزين ويُلعن غير متزينات!» وبعد أن ترد على فتاوى القدماء تعلق قائلة «إن هذه الأقوال المتناقضة، كلها استسابات واستحسانات وليس فيها قول مبنى على دليل من الكتاب أو من السنة، ولو كان دليل لاتفقوا... يظهر أن الفقهاء يتصرفون بكلام الله كما يشاؤون، فمنهم من حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، فمن أراد وسع ومن أراد ضيق، أما نحن التعسات، فمكرهات في نظر بعضهم، على أن لا نتبع إلا ما فيه تعسير علينا وتضييق» وهي ترى أن الشارع واحد في كل الأحوال وهو الله سبحانه وتعالى «النبي لما خطب الناس بمنى قال: كل شيء مردود إلى كتاب الله وما عداه زخرف، وأنا لم أقل قولا لا يوافق كتاب الله».

وقد كرست جزءا كبيرا من بحثها للدفاع عن حق المرأة المسلمة في كشف وجهها، وهو ما كان يحرمه بعض الفقهاء الذين أفتوا بتغطية وجه المرأة وردا على هؤلاء تقول «ألا ترون وتعلمون، أنه ليس في هذا الزمان إماء، ولكن فيه سافلات (مومسات) لهن الحرية في أن يلبسن ملبس الحرائر، فلم يبق لنا والحالة هذه معرف إلا وجوهنا، وما فيها من سمت الحياء وسيماء الشرف، فكيف لا يؤذن في السفور لتلك الوجوه».

«إن تجاوز بعضهم على حق المرأة بستر وجهها، مع أنه مغاير لكل ما ذكرت من الأقوال بكشفه، تجاوز على حق الله، فلو أراد الله تعالى ستر وجه المرأة، لسهل عليه، وهو القدير العليم، الذي خلقنا وعلمنا البيان، أن لا يسكت فيصرح أن تستر الجلابيب الوجوه، ولاستغنى عن قوله {إلا ما ظهر منها} بعد قوله {وأن لا يبدين زينتهن} أو لقال سبحانه وتعالى رأسا ولا يبدين وجوههن، أو ولا يبدين كذا وكذا، أو لقال تعالى يسترن أو يغطين وجوههن كذا وكذا (والله لا يستحي من الحق) وكذلك لو كان قصده ستر الوجوه لاستغنى عن قوله تعالى {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن} إذ لا يبقى لزوم لذلك بعد أن يوضع بين وجه المرأة وعينيها وبين الرجال حجاب من جلباب. قال الله تعالى: {قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم}.

وهي ترى أن الأمر الإلهي بالغض من الأبصار «موجه إلى الروح، فالبصر له محركان: إما النفس النزيهة المرضية، أو النفس الخبيثة الأمارة بالسوء والمأمور برده هو البصر المحرك بالنفس الأمارة التي يجب غضها بل إعماؤها، أما البصر المحرك بالنفس المرضية، التي هي نفحة من الروح الإلهية فينبغي أن يكون دائما حرا مطلقا، وإنما من أجل هذا استعمل الله سبحانه وتعالى (من) التبعيضية فلم يقل يغضوا أبصارهم أو يغضضن أبصارهن.. فلا مانع مطلقا، للنفس النزيهة

المرضية من رؤية الجمال، وإنما الجمال نعمة بل أثر من آثاره ونعمه، فبقدر ما يتجلى الجمال للإنسان في العينين، يتجلى جمال الله وجمال آثاره وجمال نعمه، ففضنا البصر النزيه قصدا عن رؤية الجمال، كفران لنعمته تعالى..» (ص ١٨٥).

إن الوجه مرآة الروح، فالمرأة الشريفة تجتهد لتجعل روحها نقية دائما، فيظهر في وجهها نقاؤها، و«إن النتائج التي حصلت في العالم السافر الراقي تدل على صحة المقدمات في آرائه وأعماله، وأما النتائج التي حصلت في عالمنا المقيد في كل حركاته وأعماله، فإنها تدل على فساد المقدمات في آرائنا وأعمالنا. فلنترك الغرور يا سادة، لا فرق في الدنيا المشتركة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فليتشبه كل منا بمن هو خير منه عملا، أيا كان وأين كان (إن التشبه بالكرام فلاح) ومن كان مغرورا ومستصغرا غيره، فليس له نصيب من غيره إلا الاستصغار وتستشهد ببعض الأبيات من الشعر مثل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وتشيد الكاتبة بما فعلته نساء يوغوسلافيا، حسبما جاء في صحيفة تدعى «الصحا في التائه» في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٢٨، اللاتي كن أكثر نساء العالم تحجبا، وفجأة نفضن غبار الخمول والعادات وتآمرن على التحجب وخرجن جماعات إلى الشوارع سافرات يرتدين الألبسة الأوروبية.

ثم تنقل عن المقتطف عدد تشرين الثاني ١٩٢٧ مقالة ينعي فيها الكاتب أحوال مصر التي مازالت في ظلمة وتتغنى بالنور، ويشيد بموقف الأفغان الذين ارتدوا القبعات الأوروبية، ولم يقل أحدهم إن هذا يخالف الدين، وأباحوا السفور لمن شاء والتحجب لمن شاء.. وذكرت جريدة العهد الجديد في عددها الصادر بتاريخ ١٣ كانون الأول سنة ١٩٢٧ أن الملك الأفغاني أمان الله زار مصر بصحبة زوجته ثريا وأختيه، وكن سافرات يرتدين الملابس الأوروبية والقبعات، وقد خطب الملك خطبة قال فيها: «لاحظت أن هنا ـ في مصر ـ يتعلق الكثيرون من أفراد الشعب بالطربوش، وهذا بناء على ما يقال من أن الطربوش هو شعار الإسلام، فلابسه مسلم، وأما لابس البرنيطة فهو بالعكس. إنني اعتقد أن هذا خطأ، وهي دعاية يقوم بها الخصوم، ولا يخلو الأمر من أن هذا مصدره بعض من يريدون أن يستبدوا بالشعب، أو مصدره الأجانب الذين يريدون أن يفرقوا بين صفوف الأمة، ولماذا هذه الدعاية؟ الجواب أنها تفيد أن المسلم، ولو ذهب منه كل شيء، يظل معتقدا أنه مسلم، لأنه محتفظ بهذا الشعار (الطربوش).»

وتختم دفاعها الحار بقولها «لو بعث اليوم أبو حنيفة ولو بعث الفقهاء الثقاة الأعلام لو رأوا مقتضيات الزمن الحاضر (زمنها) لو رأوا ما آل إليه العلم الحديث في الاجتماع والاشتراع والفن والصناعة والاختراع. لو رأوا كيف أجمدنا عقولنا على ما وجدنا من بعض أقوال شاذة ومغالات وعادات مستعبدين لها

غير ناظرين إلى السنن الحقة والآيات .لو رأوا ما ينفحنا به في هذا الزمن بعض مشايخنا، خصوم المرأة، أعداء التطور الراقي، ومعارضو السفور، مشوقين إيانا إلى التخدر في الخدور، وإلى الإحجام عن تعلم الكتابة، حتى إلى التواري عن أعين أخواتنا في الوطنية أو في الإنسانية، بدلا من اتحافنا بأحسن الأقوال، لنأتي أحسن العمال، فنكون بها للعالم خير قدوة وخير مثال.

لو رأوا كيف أهملنا اللب والحقيقة والحكمة. لو رأوا كيف آثرنا جهل نسائنا استعبادا لهن، فاستعبدتنا الأمم التي آثرت علم نسائها وحريتهن....لو رأوا كل ذلك، لذابت قلوبهم لهفة وحسرة، وأرونا بأشد ما في نفوسهم من قوة فائقة، وحكمة بالغة، أحكاما توافق السنة والقرآن، وأحوال الزمان، إحكاما فيه اليسر الذي أراده الله لنا ونريده، بدلا من العسر الذي لا يريده تعالى ولا نريده..».

وتورد نظيرة زين الدين في كتابها مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية التي تؤيد رأيها مثل: «لتتبعن سنن من كانوا قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم».

«لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

«يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي فيحاذون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا علم لك بما أحدثت من بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى«الثعلبي عن أبى هريرة:

«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» و«أفضل الجهاد أن يجاهد المرء نفسه التي بين جنبيه».

«من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

وما زلنا إلى اليوم في حاجة ماسة إلى ما طالبت به نظيرة زين الدين، أول امرأة كتبت بشجاعة ترفض الحجاب:

«أرى من الواجب أن تؤلف لجنة لتفسير القرآن من أجلة الفقهاء العصريين، وعلماء الاجتماع والأخلاق، وأولى الاختصاص في العلوم والفنون المتنوعة، يشتغل كل منهم مجتهدا ضمن دائرة اختصاصه، متعاونين في استخراج الجواهر المكنونة في ذلك الكتاب الكريم، فنرى حينئذ بين أيدينا تفسيرا جليلا، منه يرى العلم والفن هدى ودليلا، والعالم والأمة خيرا كثيرا، ويمسي سهم الانتقاد على الإسلام كسيرا» (ص) ١٧٤.

أما الدكتورة فاطمة المرنيسي في كتابها «الحريم السياسي: النبي والنساء» فترى أن الحجاب نزل ليفصل بين رجلين هما الرسول (ص) وأنس بن مالك وليس رجلا وامرأة: «إن آية الحجاب نزلت في غرفة الزوجين من أجل حماية حياتهما الخاصة وإبعاد الشخص الثالث عن النظر وهو أنس بن مالك. فأنس قد خص بالحجاب، بصفته شاهدا ورمزا لجماعة أصبحت مزعجة جدا، وهذا الشاهد بذاته هو الذي يروي الحديث».

وعن معنى لفظ الحجاب ترى الكاتبة أن مفهوم الحجاب ثلاثي الأبعاد: بعد بصري وهو الحجب عن النظر (الإخفاء) وبعد فراغي: الفصل أو إقامة عتبة، ثم البعد الثالث والأخير وهو أخلاقي يعود لميدان المحرم.. وامتياز الحجابة كان لبني قصي الذين كانوا مسئولين عن حماية الكعبة الشريفة وكانوا يحتفظون بمفاتيحها. وقد بدأ الحكام الأمويون عادة حجب أمير المؤمنين عن المسلمين، فكان معاوية وورثته منفصلين عن بطانتهم بستار. والحجاب في معجم مصطلحات الصوفية له معنى سلبي فالمحجوب شخص أعيق عن تبصر النور الإلهي في القلب، لانغماسه في الشهوة الحسية أو العقلية، وكان بعضهم يدعو قائلا: اللهم مهما عذبتني بشيء، فلا تعذبني بذل الحجاب.

كذلك نجد اللفظ في القرآن الكريم يحمل معنى الستار {فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا} السورة ١٩: آية ١٧، والاعتزال (الخدر): سورة الأحزاب آية ٥٣ وآية ٣٢، والجدار: {وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون} الآية٧ من سورة الأحقاف، ويوم الحساب حين يفصل الناجون عن المدانين، {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم} سورة الشورى الآية١٥، {وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون} سورة فصلت (الآية ٥)، والمعنى هنا سلبي وفيه إنقاص للعقل البشري فهو عاجز عن فهم رسالة التوحيد.

وحول سورة الجلباب تقول فاطمة المرنيسي: «لم يكن المقصود من الآية إضافة عنصر ثيابي جديد وإنما طريقة جديدة للباس قديم، للتمييز على المستوى الإشاري (الحركي). و«إذا كان الحجاب جوابا على اعتداء جنسي، على التعرض في الطرقات، فإنه في الوقت نفسه مرآته. إنه يركز و يعكس هذا الاعتداء بالاعتراف أن الجسد النسوي هو عورة، جسد معطوب بدون دفاع. حجاب النساء كما عرفته المدينة في تمام حربها الأهلية، هو في الواقع اعتراف بالشارع كمكان سمح فيه بالتزاني».

«في الصراع بين حلم محمد (عليه الصلاة والسلام) بمجتمع يمكن فيه للنساء التحرك بحرية في المدينة، «لأن الرقابة الاجتماعية سوف تكون الإيمان الإسلامي الذي ينظم الرغبات، وبين أخلاق المنافقين الذين لم يتصوروا المرأة إلا كموضوع للعنف والشهوة، كانت هذه الأخيرة التي رجحت».

«في منطق الحجاب حل قانون الاغتصاب القبلي محل عقل المؤمن الذي أكد عليه رب المسلمين كأمر لابد منه كي يميز بين الخير والشر «فالحجاب هو انتصار للمنافقين، وانتصار أيضا للفكر الجاهلي الذي أصيب بصدمة بعد أن نزلت آية الميراث للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا».

كان لهذه الآية وقع القنبلة بين سكان المدينة الذكور الذين وجدوا أنفسهم لأول مرة في نزاع مباشر وشخصي مع الفكر الإسلامي. قبل الإسلام لم يكن للمرأة في الجاهلية حق في الإرث فإما أن يذهب الإرث إلى الذكور من قبيلة الزوج أو من قبيلتها، فالرجال وحدهم، قبل هذه الآية كان لهم الحق بالميراث في الجزيرة العربية وكانت النساء تشكل جزءا من الأموال الموروثة. كان الابن البكر يرث زوجة أبيه يمكنه الزواج منها أو يمد حقوقه عليها إلى شقيقه أو ابن أخيه إذا رغب، كان الوريث يسرع إليها ويغطيها بثوبه ويعلن حقه في الزواج منها، وعندئذ يجردها من ميراثها. لقد كانت المرأة والطفل الذكر يعدان مواطنين من الدرجة الثانية لأنهما لا يشاركان في الغزوات والحروب وبالتالي لا ينالان الغنائم وكانت الحرب مصدرا أساسيا للثروة.

لما نزلت آية الميراث قاومها الرجال ومنهم شخص يدعى أبو قيس بن الأصلت الذي رفض أن يعطي إرثا لزوجة أبيه أو يسمح لها بالزواج ممن ترغب، فشكته للنبي، وكانت تدعى كبشة بنت معن، فنزلت الآية:

{يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا}.

كان «العضل» عادة تمارس لدى قريش في مكة قبل الإسلام، وهي أن يكتب الزوج عقدا بشهود مع زوجته ينص على أن ينفصلا، ولكنها لا تستطيع الزواج من آخر إلا إذا حصل على إذن منه ودفع له مبلغا من المال لتعويضه.

وتقول المرنيسي إن الرجال في المدينة ظلوا يرفضون مبدأ توريث النساء وحاولوا أن يفسروا الآية {لا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما} على أن السفهاء هم الأطفال والنساء، وقد رفض الطبري ذلك التفسير «لأن العرب لا يستعملون صيغة الفعلاء إلا بالنسبة لجمع المذكر أو بالنسبة لجمع المذكر والمؤنث».

وفي فصل حول المرأة والغنيمة، تقول المرنيسي أن المرأة في الجاهلية كانت تورث وتؤخذ في الحرب كسبية وكانت في حالة خطر دائم من التعرض لها والاعتداء عليها ووقوعها في الأسر ثم أن ترد إلى الرق. لقد كانت الغزوات مصدرا رئيسيا لجمع الثروة، والغزوة في قاموس لسان العرب هي القرار بمهاجمة عدو من أجل انتهابه (أي تجريده من أمواله)، وكان قانون الغزو قاسيا فلا خيار لدى الغالب إلا قتل الرجال وأسر النساء إماء أو افتداؤهن بالمال.

وعندما طلبت أم سلمة (أم المؤمنين) من الرسول أن تشارك النساء في الحروب لكي ينلن نصيبهن من الغنائم مثل الرجال، شعر الرجال بأن النساء تحولن إلى تهديد لمصدر آخر من مصادر الثروة ألا وهو الغنائم، وذلك بعد أن أصبحن

يشاركن في الميراث، وأنه لن يكون هنا نهاية لمطالب النساء وتحقيقهن المساواة الكاملة التي أوصى بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة. كان رجال المدينة «يرون بحق أن إرادة المرأة إذا فرضت نفسها، لن تصبح موضوعا جنسيا خاصا؛ يختطف ويبادل عليه ويشترى ولمنعها كان يتوجب مضايقة نساء النبي صلى الله عليه وسلم وإظهار أنهن لن يستطعن الإفلات من المصير النسوي العريق في القدم، مصير الكائن المجرد من التمييز، والإرادة، والشيء الذي تمارس عليه إرادة الغير «إن حل عمر، الحل بالحجاب ـ الستار الذي يخفى النساء بدلا من تغيير العقول وإجبار الذين في قلوبهم مرض» على أن يتصرفوا بشكل مختلف، سوف يستمر بعد الإسلام، كحضارة وسوف ينعكس على الفرد، وعلى دوره في المجتمع. كان الإسلام في بداياته تجربة رائدة في مادة الحرية الفردية والديموقراطية، وبعد أن سقط الحجاب على المدينة بترت ذكرى انطلاقة الحرية هذه. واليوم بعد خمسة عشر قرنا فإن العنف الاستعماري هو الذي سيجبر وبشكل متناقض الدول الإسلامية لإعادة فتح سجل حقوق الفرد والمرأة. كل نقاش حول الديمقراطية سوف يمر بها، بهذه القطعة الصغيرة المضحكة من النسيج، التي غالبا ما تكون من الموسلين الناعم، والتي يطالب بها الأصوليون في أيامنا كما لو أنها جوهر الهوية الإسلامية ذاتها[1].

---

[1] المرجع السابق ص ٢٤٠.

مراجع الكتاب

- تفسير آيات الحجاب: الطبري ج ٢٢ وصحيح البخاري ج ٣ وما يليها.
- تفسير القرطبي كتاب الشعب، فتاوى ابن تيمية مجلد ١٥.
- «الحجاب والسفور» للإمام عبد العزيز بن باز ١٩٨٦.
- «تحرير المرأة في عصر الرسالة» دراسة جامعة لنصوص القرآن وصحيحي البخاري ومسلم.
- عبد الحليم أبو شقة. الناشر: دار القلم. الكويت الطبعة الأولى ١٤١١هج - ١٩٩١م. الجزء الرابع «لباس المرأة المسلمة وزينتها».
- «السفور والحجاب» نظيرة زين الدين مراجعة وتقديم د. بثينة شعبان. الناشر: دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الثانية ١٩٩٨.
- «المرأة المسلمة بين تحرير القرآن وتقييد العلماء» جمال البنا نوفمبر ١٩٩٨. الناشر دار الفكر الإسلامي.
- «قصة السفور والنقاب. واختلاط وانفصال الجنسين عند العرب» د. محمود سلام زناتي. الناشر: دار البستاني للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

- «الحريم السياسي: النبي والنساء» فاطمة المرنيسي ترجمة عبد الهادي عباس الناشر: دار الحصاد. صدرت هذه الدراسة باللغة الفرنسية عام ١٩٨٨.
- «الجواري والشعر في العصر العباسي الأول». د سهام عبد الوهاب الفريح. الناشر شركة الربيعان للنشر والتوزيع. ط١ ١٩٨١.
- «الحديث الشريف رواية ودراية» د. نعمان القاضي المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٥.
- «مفاهيم خاطئة ألصقوها بالإسلام» خليل عبد الكريم. الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٨.
- «تاريخ القرآن الكريم» د. يوسف خليف.

الجاحظ «رسالة القيان»

- «حقيقة الحجاب وحجية الحديث» المستشار سعيد العشماوي. الطبعة الثانية. روز اليوسف الكتاب الذهبي مايو ٢٠٠٢ (مقالات نشرت في مجلة روز اليوسف عام ١٩٩٤).
- عصر الحريم السعودي د. محمد أبو الاسعاد. الناشر طيبة للدراسات والنشر سلسلة قضايا التنوير١٩٩٤.

شخصيات في الكتاب

الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. كتب نحو خمسين ومائة من الكتب المختلفة البحوث من أشهرها «الحيوان» و«البخلاء» و«البيان والتبيين». ولد بالبصرة في سنة ١٥٩ هج ورحل إلى بغداد سنة ٢٠٤ هج وتوفي في سنة ٢٥٥ هج.

خليل عبد الكريم: من مواليد أسوان عام ١٩٥١. تخرج في كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا). اعتقل على ذمة جماعة الإخوان المسلمين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٥. شغل منصب نائب رئيس مجلس إدارة الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية فرع مسجد الساحة لمدة اثني عشر عاما. محام وعضو الأمانة العامة لحزب التجمع.

الفهرس

المقدمة	١١
الفصل الأول	
خلفية تاريخية	٢١
الفصل الثاني	
الحجاب في التاريخ	٤٥
الفصل الثالث	
الحجاب في القرآن	٥٣
الفصل الرابع	
الحجاب في الحديث النبوي	٧١
الفصل الخامس	
الرق قبل وبعد الإسلام	٧٧
الفصل السادس	
الحجاب والهوية الإسلامية	٩٥
الفصل السابع	
آراء مع الحجاب	١٠٥
الفصل الثامن	
وآراء ضد الحجاب	١٢٣

لقد عكفت السيدة إقبال بركة طوال أربع سنوات على قراءة ودراسة القرآن الكريم والسنة النبوية، وكتب الأدب والتاريخ الإسلامي والفلسفة الإسلامية، ومطالعة كل ما كتب عن الحجاب حتى استطاعت أن تخرج بهذا الكتاب القيم المقنع الذي تناولت في فصوله الثمانية الحجاب في التاريخ، والحجاب في القرآن الكريم، والحجاب في الحديث النبوي الشريف، والرق قبل الإسلام .. وبعده، والحجاب والهوية الإسلامية .

الحجاب .. رؤية عصرية